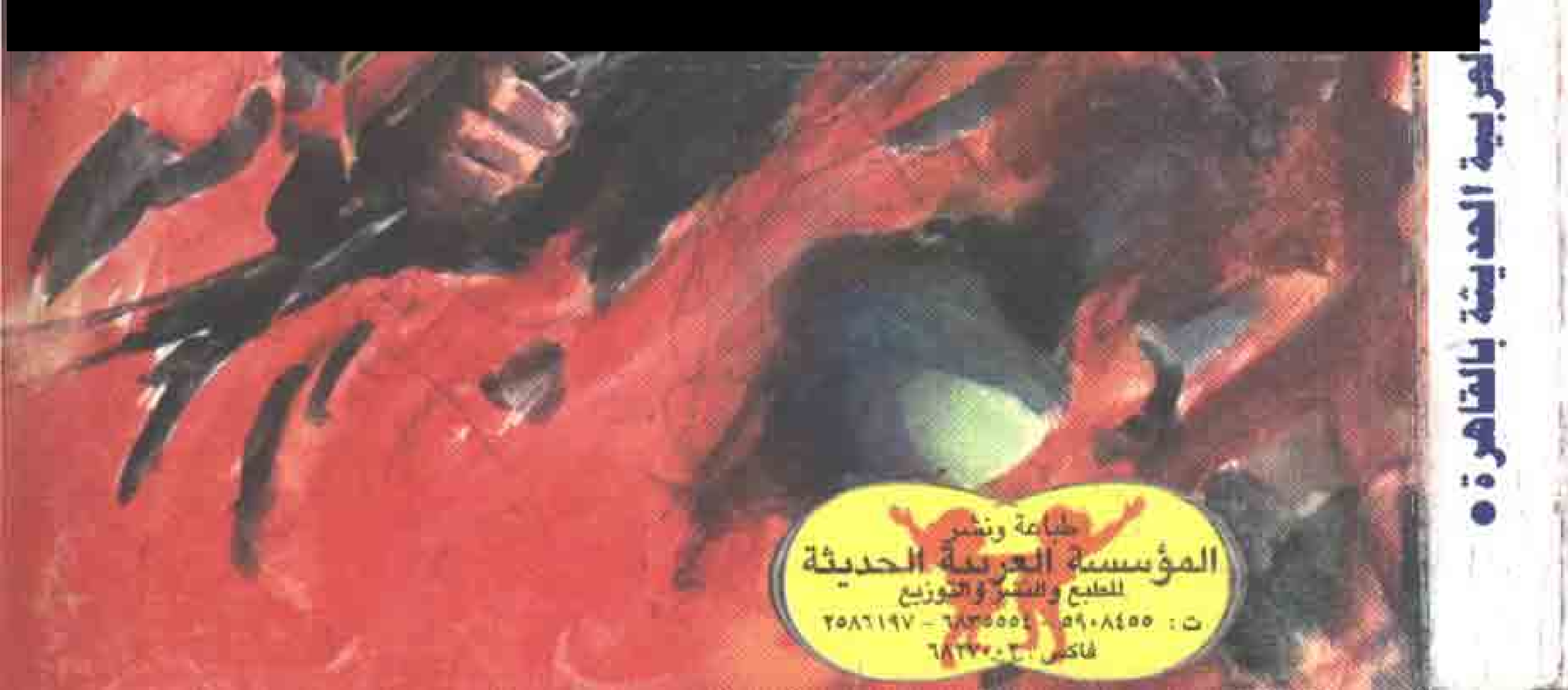




رجل المستحيل

139

الوحش الآدمى

المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

139

الثمن فى مصر ٢٥٠ وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم



الوحش الآدمى

● كيف يمكن أن يواجه العالم ذلك الخطر الرهيب، الذى يمتلك (يورى) مفاتيحه ؟!

● هل يمكن أن يقاتل (أدهم صبرى) من أجل العالم، وكل رفاقه فى قبضة (المافيا) الروسية ؟!

● ترى من ينتصر فى هذه الجولة الحاسمة ؟! (أدهم) ورفاقه، أم ذلك (الوحش الآدمى) ؟!

● اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل.. (رجل المستحيل)..



العدد القادم
(المواجهة الأخيرة)

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - القتلة..

بدا خبير الاتصالات الفنلندى (فيليب أندرسن) شديد التوتر والعصبية، وهو يقف أمام (يورى إيفانوفيتش)، الزعيم الجديد لمنظمة (المافيا) الروسية، وهذا الأخير ينفث دخان سيجارته القوى، ذا الرائحة النفّاذة، فى بطء مستفزّ، قبل أن يقول فى صرامة :

- إذن فأنت ترغب فى العودة إلى بلادك ؟!

ازدرد الخبير لعابه فى توتر، قائلاً :

- نعم .. لابد أن أعود إلى عملى، و...

اعتدل (يورى) بحركة حادة، وهو يقول فى صرامة غاضبة شرسة :

- لا بد ؟!

امتقع وجه الرجل، وتراجع بحركة غريزية، وهو يقول :

ـ أقصد أنه .. أنه ينبغى أن أفعل .

ثم امتزج غضبه بتوتره ، واندفع يستطرد فى عصبية :

ـ لقد أديت العمل المطلوب منى على أكمل وجه ، وتعقَّبت كل الاتصالات التى عهدتم بها إلىَّ ، وأنتم قلتم إن هذا جعلكم تربحون معركتكم ، ثم إننى أجلس دون عمل ، فما الداعى لبقائى ؟!

توقَّعت (زوشا) ، رفيقة (يورى) وحارسته الخاصة ، أن ينفجر هذا الأخير غاضبًا ، من الأسلوب الذى تحدَّث به الفنلندى ، إلا أن (يورى) خالف كل توقعاتها ، وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، وهدوء ، قائلاً :

ـ ألا تتقاضى أجرك ، وساعاتك الإضافية أيضًا ؟!

ذلك الهدوء المباغت أقلق الفنلندى أكثر ، فازدرد لعابه مرة أخرى فى توتر ، وهو يغمغم :

ـ ليست مسألة أجر .

سأله (يورى) ، فى هدوء أكثر :

ـ مسألة ماذا إذن ؟!

ارتبك الرجل ، وهو يغمغم :

ـ هناك ارتباطات عمل ، والتزامات ، و ...

قاطعه (يورى) ، وهو ينفث دخان سيجارته فى قوة :

ـ كم يبلغ راتبك فى شركة (نوكيا) يا رجل ؟!

ارتبك الفنلندى أكثر ، وهو يقول :

ـ الواقع أن ..

ارتسمت على شفتى (يورى) ابتسامة مخيفة ، وهو يقاطعه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ عشرون ألف دولار شهريًا ، وواحد فى الألف من المبيعات داخل (أوروبا) فحسب ، وهذا يعنى ما يقرب من مليون دولار سنويًا .. أليس كذلك ؟!

شعر الرجل بخوف أكثر ، مع هذا الهدوء الرهيب ، وهو يتمتم بصوت مرتجف :

ـ تقريبًا .

اعتدل (يورى) مرة أخرى ، واشتعلت عيناه فى غضب مباغت ، وهو يقول بصرامة وحشية :

ـ هذا يعنى أنك ستحصل منا ، مقابل أسبوعين من العمل ، على ما يساوى راتبك فى عام ونصف العام .. أليس كذلك ؟!

تراجع الرجل مرة أخرى ، وهو يقول فى توتر :

ـ سيِّد (يورى) .. إننى لم ..

هبَّ (يورى) من مقعده ، بحركة انتفضت معها كل خلية فى جسد الرجل ، وجعلته يتراجع أكثر ، حتى ارتطم بجسد (زوشا) القوى ، فدفعته هذه إلى الأمام ، فى قسوة خشنة ، و(يورى) يتابع فى غضب رهيب :

ـ فيم شكواك إذن ؟! هل تطلب المزيد ؟!

اختنق صوت الرجل فى حلقه ، وهو يقول :

ـ أبدًا يا سيِّدى (يورى) .. أبدًا .. كل ما فى الأمر هو أن المعركة قد انتهت ، و ...

قاطعه (يورى) بصيحة هادرة ، جمَّدت الدماء فى عروقه :

ـ المعركة لم تنته بعد .

وتألَّقت عيناه على نحو مخيف للغاية ، وهو يشدَ قامته ، متابعًا بكل صرامة :

ـ لقد ربحنا بضع جولات فحسب .

نطقها الروسى ، وعقله يستعيد الأحداث ، منذ تولَّى زعامة (المافيا) الروسية ، بعد مصرع شقيقه (إيفان) على يد (أدهم صبرى) ..

بعدها سقط (أدهم) فاقد الوعى ، وألقت السلطات الروسية القبض على فريقه الجديد ، الذى انتقاه بدقة بالغة ، من بين صفوف المخابرات العامة ، والمرشحين

للانضمام إليها .. وجاء (يورى) خلفًا لشقيقه ، بعقل يتأرجح بين العبقرية والجنون ، وقرَّر أن يستعيد هيبة (المافيا) الروسية ومكانتها ..

وبمنتهى العنف ..

وكان أسلوبه ناجحًا وعبقريًّا للغاية ، حتى إنه جعل (أدهم) وفريقه هدفًا لكل القوى فى (روسيا) .. الرسمية والإجرامية ..

ومع براعة خطته ، سقط الكل فى قبضته ..

الكل ، فيما عدا (أدهم) نفسه ..

(أدهم) ، الذى استعاد وعيه فى لحظة الخطر ، وتحوَّل إلى وحش كاسر ، مع سقوط رفاقه فى قبضة الشيطان الروسى ..

وواجهت (المافيا) الروسية أقوى وأشرس مقاتل عرفته ، فى تاريخها كله ..

ولكن زعيمها كانت لديه خطط أخرى ..

خطط أكثر وحشية ..

وقسوة ..

وشيطانية ..

وبضربة بارعة ، استولى على كمية رهيبة ، من مخزون غاز الأعصاب القاتل ، من المخازن العسكرية الروسية ..

وأصبح العالم كله فى قبضة وحش ..

وحش آدمى ، لايعرف الرحمة أو الشفقة ..

وفى الوقت الذى يقاتل فيه (أدهم) ، لاستعادة رفاقه ، كان (يورى) يثبت للعالم كله قسوته ، ويبيد القرى بغاز الأعصاب بلا رحمة ..

وأصبح الموقف خطيرًا ..

إلى أقصى حد ..

وفى سجنهم ، حاول رفاق ـ (أدهم) البحث عن وسيلة للفرار ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه المخابرات

المصريـة تفكّر ، فى إسناد عمليـة غاز الأعصـاب لأقوى رجالها ..

لـ (أدهم صبرى) ..

(رجل المستحيل) ..

و ...

ارتفع رنين الهاتف الخاص بـ (زوشا) فجأة، فانتزع (يورى) من أفكاره، وجعله يلتفت إليها بحركة حادة، وهى ترفع هاتفها إلى أذنها ، قائلة فى لهفة :

ـ من يتحدّث ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تستمع إلى محدّثها ، على نحو أدرك معه (يورى) أنهـا تتلقّى خبرًا مهمًّا للغايـة ، فأشـار إلـى خبير الاتصـالات الفنلنـدى فـى صرامة ، قائلاً :

ـ اذهب الآن .

أسرع الرجل يغادر الحجرة بخطوات أقرب إلى العدو ،

وكأنما ينتهز الفرصـة للفرار من وجـه (يورى) ، فى لحظة جنونه الرهيبة هذه ، فى حين سأل هذا الأخير حارسته فى صرامة عصبية :

ـ ماذا هناك ؟!

أبعدت سمّاعة هاتفها عن أذنها ، وهـى تقول فى انفعال :

ـ المصرى .

هتف بها :

ـ ماذا عنه ؟!

أشـارت بيدهـا دون معنـى ، وهـى تهتـف بكـل انفعالها :

ـ عند (جياروف) .

اشتعلت عينـاه بكل انفعـال الدنيا ، وهو يهتف :

ـ عنده .

ثم اختطف منها هاتفها فى قسوة ، وهتف عبره بكل صرامته الشرسة :

ـ هنا (يورى) .. الزعيم .. استمع إلى جيدًا يا رجل ، ونفذ ما سآمرك به فورًا .

راح يلقى أوامره ، لضمان السيطرة على الموقف ، فى مقر (فيدور جياروف) ، الزعيم الفرعى لمنظمة (المافيا) الروسية ، وتأكيد سقوط (أدهم) ، دون أن يسأل عن التفاصيل ، أو يعلم أن عمالقة (جياروف) كانوا يحيطون بخصمه المصرى بالفعل ، ويصوبون إليه فوهات أسلحتهم ، فى تحفز وحش ، فيما بدا وكأنه فخ محكم وقاتل ..

حتمًا(*) ..

★ ★ ★

(★) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الأربعة الأولى (الأستاذ) ، لـ (المغامرة الكبرى) (مدينة الذئاب) و(الضحايا) .. المغامرات أرقام (١٣٥) ، و(١٣٦) ، و (١٣٧) ، و(١٣٨) .

ارتجّ جسد (جياروف) البدين ، مع تلك الضحكة الظافرة ، التى انطلقت عاليه مجلجلة من حلقه ، وهو يرى (أدهم) وسط رجاله ، الذين ارتفعت فوهات أسلحتهم ، وكل خلية فى أجسادهم تتحفّز للقضاء عليه ، و ...

وفجأة ، اقتحم جسد قوى المكان ..

رجل قوى البنية ، مفتول العضلات ، يتدلّى بحبل متين من أعلى البناية ، دفع جسده بقدميه إلى الخلف ، ليرتدّ بعدها نحو النافذة الزجاجية الكبيرة ، لحجرة مكتب (جياروف) ويقتحمها بمنتهى العنف والقوة ..

ومع دوى تحطُّم زجاج النافذة الكبيرة ، استدار العمالقة إليها ، واحتبست ضحكة (جياروف) فى حلقه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وشفتاه تغمغمان فى ذهول بلغ ذعره منتهاه :

ـ مستحيل !!

وقبل حتى أن تكتمل كلمته ، كان القادم ينقضَ على العمالقة كالإعصار ، وينضمَ إليه الآخر ، في قتال رهيب ، يبلغ أقصى حد عهده (جياروف) المذهول من العنف ..

فأمام عينيه الجاحظتين ، وفكه الذي يتدلَّى ليمتزج بعنقه المكتظ ، كانت هناك نسختان من (أدهم صبري) تهاجمان عمالقته ..

بل تحطِّمهم تحطيمًا ..

فلقد كان للمفاجأة وقع مذهل ، على الحدث كله ..

وانتفض جسد (جياروف) البدين كله ، وهو ينتزع نفسه من ذهوله ، ويغمغم في عصبية مفرطة ، ويده تقفز نحو درج مكتبه ، في محاولة لالتقاط مسدسه :

- هذا الشيطان المصرى المخادع ! لقد ..

لم تكن أصابعه لامست مقبض مسدسه بعد ، عندما التصقت فوهة مسدس باردة بصدغه ، مع صوت صارم ساخر ، يقول :

- هل أخذتك المفاجأة أيها الوغد البدين ؟!

اتسعت عينا (جياروف) في رعب ذاهل ، وهو يحدِّق في عمالقته الأشداء ، الذين تناثروا على أرضية حجرة مكتبه ، محطمى الأنوف والفكوك والأسنان ، قبل أن يرفع عينيه إلى (أدهم) الواقف أمامه ، والذى انتزع عن وجهه قناعًا مطاطيًا ، وهو يقول للآخر ، الذى يلصق فوهة مسدسه الباردة بصدغه :

- مدهش .. لقد وصلت في اللحظة المناسبة بالضبط ياسيادة العميد ، فلو لم تقتحم النافذة في هذا التوقيت بالتحديد ، لكانت نهايتى ولا شك .

أشار (أدهم) بيده ، وهو يجيب زميله (مدحت) :

- إنه توفيق من اللَّه (سبحانه وتعالى) .

زفر (مدحت) ، قبل أن يبتسم في توتر ، قائلاً :

- من حسن الحظ أن هذا البدين لم يلتق بسيادتك أو بالجنرال (كواليسكى) من قبل ، وإلا لميَّز اختلاف الصوت من الوهلة الأولى .

لم يفهم (جياروف) حرفًا واحدًا مما نطقاه ، وهو ينقل بصره بينهما فى ذعر ، قبل أن يقول فى انهيار :

ـ مستحيل ! كيف ؟! كيف فعلت هذا ؟!

أجابه (أدهم) فى سخرية :

ـ مجرَّد استغلال للطبيعة الإجرامية فى أعماقكم ، أيها الوغد البدين .. فظهور زميلى متنكرًا بهيئتى ، ومن فوقها هيئة ذلك الخائن (كواليسكى) ، وتصوُّرك أنك قد كشفت أمره بعبقريتك وذكائك الوهميين ، أفقدك الحذر ، وأصاب رجالك بزهوة الظفر ، مما أتاح لى التسلُّل إلى سطح بنايتك ، واقتحام حجرتك على هذا النحو .

حاول (جياروف) أن يتماسك ، وهو يقول فى توتر لا محدود :

ـ لن .. لن يمكنك أن تربح هذه المرة .. رجـ.. رجالى أبلغوا (يورى) ، ولا ريب أنه فى طريقه إلى هنا ، فى هذه اللحظة .

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لا مبالاة ، وقال :

ـ لا بأس .. مهمتنا هنا لن تستغرق وقتًا طويلاً .

ثم اكتسى صوته بصرامة قاسية مباغتة ، وهو يجذب إبرة مسدسه ، مستطردًا فى خشونة ، وبصوت يتجمَّد له الدم فى العروق :

ـ أين رفاقى أيها الوغد ؟!

ازدرد (جياروف) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ لن أخبرك أبدًا ، حتى لو ..

قبل أن يتمّ عبارته ، خفض (أدهم) فوهة مسدسه بحركة سريعة ..

ثم ضغط الزناد ..

ومع دوى الرصاصة ، شعر (جياروف) بآلام رهيبة فى كفه اليسرى ، فانطلقت من حلقه صرخة هائلة ، وهو يرفع يده المحطَّمة ، التى تنزف منها الدماء فى غزارة ، ويحدِّق فيها برعب ..

وبنفس السرعة ، عاد (أدهم) يلصق فوهة مسدسه ، التى التهبت مع خروج الرصاصة ، بصدغ (جياروف) ، وهو يقول بصوت رهيب مخيف :

- يبدو أنك لم تستوعب الأمر جيِّدًا أيها الحقير .. إننا نتحدَّث عن رفاقى .. عن كل ما لى فى الحياة .. وحياتك كلها لن تساوى قلامة إظفر أحدهم ، فإما أن تخبرنى أين أرسلتهم ، أو لن أتورَّع عن تحطيم جسدك قطعة قطعة ، حتى أظفر منك بما أريد .

هتف (جياروف) ، بكل الذعر والألم :

- لا .. لا يمكننى أن أفعل .. (يورى) سيقتلنى لو فعلت .

صاح به (أدهم) فى قسوة :

- وأنا سأقتلك لو لم تفعل .

هزَّ (جياروف) رأسه فى عنف ، صائحًا :

- لا .. لا يمكننى أن ..

بتر صيحته بدوى رصاصة أخرى ، هشَّمت ركبته اليمنى ، فصرخ ..

وصرخ ..

وصرخ ..

وفى توتر ، قال (مدحت) ، وهو ينظر فى ساعته :

- الوقت يمضى بسرعة يا سيادة العميد ، ودوى الرصاصات سيجذب باقى رجاله حتمًا .

لم يبد حتى أن (أدهم) قد سمعه ، وهو يعود ليلصق فوهة المسدس بصدغ (جياروف) ، قائلاً بكل صرامة الدنيا :

- الفرصة الثالثة والأخيرة أيها الوغد البدين .. إما أن تخبرنى أين أرسلت رفاقى ، أو أنسف رأسك الفارغ بلا رحمة .

وانعقد حاجبا (مدحت) ، وهو يطالع هذا المشهد بقلق وتوتر بالغين ..

كان من الواضح أن (أدهم صبرى) قد ألقى كل شىء فى الوجود خلف ظهره ؛ لأن الأمر يتعلَّق برفاقه ..

بكل من أحب ، فى الدنيا كلها ..

شقيقه ..

وحبيبته ..

وصديق عمره ..

ومن تبقيا من أوّل فريق انتخبه وقاده ، منذ عمل بالمخابرات ..

ولقد خسر ثالث أفراد الفريق بالفعل ..

وهو غير مستعد لخسارة أى مخلوق آخر ..

أى مخلوق ..

ومهما كان الثمن ..

ولقد بكى (جياروف) كطفل مذعور ، وهو يلوّح بيده السليمة ، ويبذل قصارى جهده ، لتجاوز تلك الغصّة فى حلقه ، قائلاً بصوت مرتجف :

ـ لـ .. لينن . (لينينجراد) .

سأله (أدهم) فى قسوة أكثر :

ـ أين فى (لينينجراد) ؟!

تعال فى تلك اللحظة وقع أقدام ثقيلة ، تعدو نحو الحجرة ، فأشار (مدحت) بيده ، قائلاً فى توتر :

ـ لقد أتوا .

أدار (جياروف) عينيه إلى الباب فى لهفة وأمل ، فى حين تجاهل (أدهم) الموقف كله ، وهو يجذب إبرة مسدسه ، ويكرّر بقسوة وخشونة عنيفين :

ـ أين فى (لينينجراد) ، أيها الوغد البدين ؟!

اقترب وقع الأقدام أكثر وأكثر ، فهتف (مدحت) :

ـ سيادة العميد .

استدار إليه (أدهم) بحدة غير طبيعيه ، وصاح بالروسية :

ـ كلاً .. لن ننصرف ، قبل أن أحصل على العنوان ، أو أقتل هذا الوغد البدين كخنزير أجرب حقير .

عبارتـه الروسية جعلت (جيـاروف) ينكمـش فـى مقعده ، بكل رعب الدنيا ، وهو يهتف :

ـ سأخبرك .. سأخبرك فورًا .

فى نفس اللحظة ، التى هتف فيهـا بعبـارته هذه ، كـان الرجـال ، الذيـن أرسـلهم (يـورى) ، قـد بلغـوا المكان ، وصاح قائدهم فى صرامـة :

تذكَّروا أوامر الزعيم .. لا رحمة مع العدو .

مع آخر صيحته ، اندفع الرجال كلهم نحو بـاب حجرة مكتب (جياروف) ، وانقضوا عليه ، فحطموه بأجسـادهم القوية ، قبل أن ترتفع فوهات مدافعهم الآليه ، لتطلـق الرصاصات القاتلة كالمطر ، فى كل مكان بالحجرة الواسعة ..

بلا استثنـاء ..

* * *

« أيها القتلة الأوغاد .. »

صرخت (منى) بالعبارة فى ارتيـاع ، وهى تثب نحـو (قدرى) ، الذى سقط كالحجر ، بعد أن أصابته رصاصة

(زيون) ، عملاق (المافيا) الروسية ، والمسئول عن مخازن (جياروف) فى (لينـنجراد) ، وهتف الدكتـور (أحمد صبرى) ، وهو يحـلّ أزرار قميص (قـدرى) فى سرعة :

ـ ضمادات .. أريد أى شىء يصلح كضمادات بسرعة .

انتزع (شريف) قميصه ، وناوله إياه ، هاتفًا :

ـ هل يصلح هذا ؟!

أما (ريهام) ، فقد رفعت وجهها وعينيها الغاضبتين إلى (زيون) فى مقت ، فى حين غمغم أحد الحارسين ، المرافقين لذلك الأخير ، فى قلق شديد :

ـ الزعيم أمر بالحفاظ على حياتهم .

زمجر (زيون) ، قائلاً فى شراسة :

ـ إلا عند محاولتهم الفرار .

قال الحارس الأخر فى حدة :

ـ وهل فعلوا ؟!

استدار إليه (زيون) ، قائلاً فى صرامة غاضبة :

ـ كانوا يخططون لهذا .

هتف الأوَّل :

ـ ومن أدراك ؟!

صاح به (زيون) فى شراسة :

ـ أنا أقول هذا .. هل من اعتراض ؟!

صاح به الحارس الثانى فى غضب :

ـ نعم .. إننى أعترض .. وبشدة .

رفع (زيون) فوهة مدفعه الآلى ، وهو يقول فى وحشية :

ـ فليكن .

ثم ضغط الزناد ، مستطردًا :

ـ فلنقض على الجبهة المعارضة إذن .

انطلقت رصاصاته تحصد الرجل ، وتنتزعه من مكانه ،

لتدفعه إلى الخلف أربعة أمتار كاملة ، مع عنف الرصاصات ، حتى ارتطم بالجدار ، وسقط جثة هامدة ، تاركًا بقعة كبيرة من الدم خلفه ..

وبكل غضب الدنيا ، صرخ الحارس الآخر :

ـ لقد قتلته أيها الوغد .. لقد قتلته .

استدار إليه (زيون) كالوحش الكاسر ، وهو يصرخ :

ـ الحق به فى الجحيم إذن .

رفع الحارس فوهة مدفعه بسرعة ، ولكن (زيون) أطلق رصاصاته أوَّلاً ، ورآها تخترق جسد زميله ، وتلقيه أرضًا ، لتتدفَّق الدماء من إصاباته بمنتهى العنف ..

وفى غضب هائل ، زادته رائحة الدم جنونًا ، رفع مدفعه الآلى ، وتألَّقت عيناه كالوحوش ، وهو يقول :

ـ أرأيتما أيها الغبيين ؟! كل هذا من أجل حفنة من المصريين ؟! !

يا للسخافة ! يا للغباء !!

ثم تحوَّل بريق عينيه إلى لون دموى مخيف ، وهو يضيف :

ـ من الواضح أنهم سيسببون لنا مشكلات بلا حدود .

جذب إبرة مدفعه الآلى ، مستطردًا :

ـ حتى يذهبوا إلى الجحيم .

اقتحم ثلاثة من الرجال المكان ، فى تلك اللحظة ، وأحدهم يصرخ :

ـ ماذا حدث ؟!

لم يكد يطلق صرخته ، حتى لمح جثتى الحارسين ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وارتفع مدفعه الآلى بحركة غريزية ، وهو يهتف :

ـ يا للـ ..

صاح به (زيون) فى وحشية ، قبل أن يتمّ هتافه :

ـ اخرج .. اخرجوا جميعًا .

حدَّق الرجلان الآخران فى الجثتين ، فى حين حدَّق ثالثهم فى (زيون) ، الذى أطلق رصاصات مدفعه فى سقف المكان ، صارخًا بكل الغضب والصرامة :

ـ إلى الخارج .

أسرع الرجال الثلاثة يغادرون المكان ، وكلهم حيرة وقلق ، وأغلق آخرهم الباب خلفه ، فانعقد حاجبا (زيون) الكثين ، وهو يكرِّر :

ـ لا بد أن يموتوا جميعًا .

ثم استدار بكل غضبه ، وجنونه ، وفوهة مدفعه الآلى القاتلة ، ودفع باب سقف مخزن الغلال بقدمه ، و ...

ودوت الرصاصات فى المكان ..

بكل العنف .

* * *



ودفع باب سقف مخزن الغلال بقدمه ، و ..
ودوت الرصاصات فى المكان ..

٢ ـ المقاتلون ..

« أننى أعرف هذا الرجل .. »

غمغم أحد مرشدى الشرطة المصرية بالعبارة ، وهو يتطلَّع إلى صورة القتيل ، الذى انتهت إليه التحريات ، بشأن دخول أسطوانات غاز الأعصاب إلى (مصر) ، فمال نحوه أحد قيادات الشرطة ، يسأله فى صرامة :

ـ ما كل معلوماتك عنه ؟!

بدا المرشد متوترًا ، وهو يشير بيده ، مجيبًا :

ـ إنه نصف يونانى ، ونصف فرنسى ، يقيم فى (مصر) منذ مولده .. والده كان يمتلك بارًا فى (الإسكندرية) ، ولقد ورثه هو ، وباعه ، و ...

قاطعه أحد اللواءات فى حدة :

ـ إنك لم تذكر اسمه بعد .

ازدرد المرشد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يجيب :

ـ لست أعرف اسمه الحقيقى ، ولكن كلنا نخاطبه باسم (جريكو) ؛ نظرًا لأن ..

دفع أحدهم نحوه ورقة كبيرة وقلمًا ، قبل أن يتمّ حديثه ، وقال بصوت هادئ للغاية ، بخلاف الآخرين :

ـ دوّن كل ما تعرفه هنا .

التقط المرشد القلم والورقة ، وهو يتطلّع إلى ذلك الرجل ، الذى يرتدى ثيابًا مدنية ، والذى بدا مختلفًا بشدة عن الآخرين ، وتمتم :

ـ كل ما أعرفه ؟!

وعلى عكس الآخرين أيضًا ، منحه الرجل ابتسامة هادئة ، وهو يومئ برأسه ، قائلاً فى حزم :

ـ كله .

تردَّد المرشد بضع لحظات ، ثم اندفع بغتة يكتب كل ما يعرفه عن (جريكو) هذا ..

ويكتب ..

ويكتب ..

نصف ساعة كاملة ، دوَّن خلالها كل ما لديه من معلومات ، عن القتيل نصف اليونانى ، قبل أن يناولهم الورقة ، قائلاً بتوتر شديد :

ـ هذا كل شىء .

مدَّ أحد رجال الشرطة يده إلى الورقة فى لهفة ، ولكن ذلك المدنى الهادئ استوقفه بإشارة صارمة ، قبل أن يتطلَّع إلى المرشد فى هدوء ، قائلاً :

ـ راجع ما كتبته جيِّدًا ، وأضف كل ما تتذكره ، ولا تغفل أية ملحوظة ، مهما بدت لك تافهة .

همس أحد رجال الشرطة فى عصبية :

ـ إننا نضيع الوقت بهذا .

أجابه المدنى فى هدوء حازم :

ـ بل نربح الوقت يا رجل .

ثم عاد يلتفت إلى المرشد ، ويقول فى هدوء ، لم يتخل هذه المرة من الصرامة :

ـ راجع ما كتبته .

استعاد المرشد الورقة ، وراح يقرأ كل ما كتب ، ثم بدأ يضيف كلمة هنا ، وأخرى هناك ، ومعلومة بين السطور ، وهكذا ، فمال المدنى على رجل الشرطة ، هامسًا :

ـ أرأيت .. معلومة صغيرة إضافية ، قد توفِّر يومًا كاملاً فى البحث والتحرّى .

غمغم رجل الشرطة بابتسامة عصبية :

ـ فهمت .

انتهى المرشد من المراجعة ، وسلمهم الورقة ، فالتقطها المدنى هذه المرة ، وقرأها فى عناية بالغة قبل أن يشير إلى المرشد ، قائلاً :

ـ ابق فى الجوار ، فقد نحتاج إليك مرة أخرى .

نهض المرشد ، مغمغمًا فى توتر :

ـ بالتأكيد .. بكل تأكيد .

لم يكد يغادر الحجرة ، حتى وضع رجل المخابرات الورقة على المائدة ، وقال لقيادات الشرطة من حوله :

ـ أظننا قد وضعنا يدنا على بداية الخيط أيها السادة .

نطقها ، وهو يشير إلى عبارة أضافها المرشد بين السطور ..

عبارة تحوى معلومة صغيرة ..

صغيرة جدًّا ..

* * *

كان الغضب ـ كل الغضب ـ يملأ كيان العملاق الثائر (زيون) ، وهو يميل بفوهة مدفعه الآلى داخل صومعة الغلال ، وقدا اتخذ قراره بقتل كل رفاق (أدهم) ..

بلا استثناء ..

وفى أعماقه ، كان واثقًا من أن هذه العملية لن تستغرق سوى دقيقة واحدة ، على أقصى تقدير ..

فالصومعة محكمة ، ولها سقف مرتفع ، ومن بداخلها لا يحملون أية أسلحة ، ولا يوجد ما يمكنهم الاختباء خلفه ، و ...

ولكنه أهمل عاملاً واحدًا ، شديد الأهمية والخطورة ..

أن من داخل الصومعة ليسوا أشخاصًا عاديين ..

إن أربعة منهم ينتمون إلى المخابرات العامة المصرية ..

ونصفهم من المقاتلين ..

لذا ، فما إن مال (زيون) ، لتصفية رفاق (أدهم) ، حتى فوجئ بحذاء كبير ينطلق نحوه ، ويرتطم بوجهه مباشرة ..

ومع عنف الارتطام ، تراجع جسده بحركة حادة ، وهو يطلق صرخة ألم ، مع سباب ساخط ..

وبحركة غريزية ، ضغطت سبابته زناد مدفعه الآلى ، فانطلقت رصاصاته تدوى فى عنف ..

وتضاعف غضب العملاق ، وهو يعتدل ، ويمسح وجهه فى حدة ، صارخًا :

- هل تتصوَّرون أن هذا سينقذكم من يدى ، أيها المصريون الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتطم شىء ما بساقه ، ثم التفّ حولها بسرعة ، فانحنى يلقى نظرة سريعة عصبية عليه ..

ومن النظرة الأولى ، أدرك (زيون) أن أسراه قد مزّقوا ملاءة عادية ، وصنعوا منها ما يشبه الحبل ، واستخدموا ما صنعوه ، مع حذاءى (قدرى) الضخمين ، لصنع سلاح بدائى ، قذفته (منى) نحو ساقه ، ليلتفّ حولها فى إحكام ..

وبغضب أكثر ، انحنى (زيون) ليحلّ الحبل عن ساقه ، وهو يهتف :

- يا للسخافة ! هل اعتقدتم أنكم ستربحون المعركة ، بزوج من الأحذية ، وحبل ؟!

لم تكد عبارته تكتمل ، وقبل حتى أن يلمس الحبل ،

كان (شريف) و(ريهام)، و(منى) يتعاونون، لجذب الحبل فى قوة، اختلّ معها توازن العملاق، فأطلق سبابًا ساخطًا آخر، و ...

وفجأة، وجد نفسه يهوى، عبر تلك الفتحة فى السقف ..

ومن ارتفاع خمسة أمتار، ومع صرخة محدودة، هوى العملاق الروسى، ليرتطم بأرضية الصومعة فى عنف، تفجَّرت معه الآلام، فى كل ذرة من جسده ..

وبثورة عارمة، حاول (زيون) أن ينهض، هاتفًا :

- أيها الـ ..

ولكن (منى) وثبت نحوه، وركلته فى أنفه ركلة كالقنبلة، هاتفة :

- إننى أفضّل كثيرًا المواجهات المباشرة .

ثم لحقت بها (ريهام)، وركلته فى فكه، صائحة :

- وخاصة مع الأوغاد مثلك .

كانت الضربتان من العنف، بحيث تكفيان لإسقاط ثور، وعلى الرغم من هذا فقد أطلق (زيون) زمجرة ألم غاضبة، وهو ينهض، صارخًا :

- لن ينجو أحدكم من قبضتى .. لن ..

قبل أن تكتمل عبارته، قفز (شريف) يختطف مدفعه الآلى، ثم رفعه ليهوى به بكل قوته على رأس العملاق، هاتفًا :

- وماذا عن قبضتنا نحن ؟!

جحظت عينا (زيون)، مع عنف الضربة، وانتفض جسده كله فى قوة، وتجمَّد كيانه كله دفعة واحدة، وتفجَّرت الدماء من رأسه فى غزارة، قبل أن يهوى كالحجر، وسط بركة من الدم ..

وفى لهفة، استدارت (منى) إلى الدكتور (أحمد)، هاتفة :

- كيف حال (قدرى) ؟!

أجابها فى توتر :

- بدانته منعت الرصاصة من بلوغ قلبه ، ولكنه مازال بحاجة إلى إسعاف عاجل ، وتدخل جراحى سريع .

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى حزم :

- سنبذل قصارى جهدنا ليحصل عليهما .

ثم انحنت تنتزع الحبل المصنوع من قطع الملاءة ، و(شريف) يسأل فى عصبية :

- والآن ماذا ؟!

أجابته (منى) فى حسم :

- سنسعى للخروج من هنا .

سأل فى توتر شديد :

- كيف ؟!

التقطت المدفع الآلى من يده ، وراحت تعقد طرف الحبل عند منتصفه ، وهى تجيب فى حزم ، لم يخل من العصبية والتوتر :

- سنحاول تقليد ما يمكن أن يفعله (أدهم) ، فى ظروف مماثلة .

غمغم (شريف) فى انبهار :

- حقًّا ؟!

أما (ريهام) ، فتساءلت فى حذر :

- وما الذى يمكن أن يفعله الأستاذ ، فى موقف كهذا .

تراجعت يد (منى) ، الممسكة بالمدفع الآلى ، وهى تجيب فى حزم صارم :

- هكذا .

قالتها ، وألقت المدفع بكل قوتها ، نحو تلك الفتحة بالسقف ..

ومع قوة الدفع ، عبر المدفع الآلى الفتحة ، إلا أنه عاد يسقط منها ، عائدًا إلى داخل الصومعة ، فغمغمت (ريهام) :

- آه .. فهمت .

واعتدل (شريف) ، قائلاً فى حزم :

- لو أنك تحاولين فعل ما تصوَّرته ، فالأفضل أن تلقى المدفع نحو ركن الفتحة .

تألَّقت عينا (منى) ، وهى تقول :

- هذا صحيح .

ومرة أخرى ، ألقت المدفع الآلى بكل قوتها ، نحو ركن فتحة السقف ، ورآه الجميع يعبر الفتحة ، ثم يسقط بعيدًا عنها ، والحبل يمتدّ إلى ركنها ، فهتفت (ريهام) :

- الآن دعينا نسحب الحبل فى حذر .

استغرقت العملية ثلاث دقائق كاملة ، حتى أصبح المدفع الآلى عند ركن الفتحة تمامًا ، وطرفاه معلقان بزاوية الركن ، فزفرت (منى) ، متمتمة :

- أخيرًا .

وهتف الدكتور (أحمد) :

- هل وجدتم سبيلاً للخروج من هنا ؟!

أجابته (منى) فى حزم :

- تقريبًا .

ثم التفتت إلى (شريف) ، مستطردة بلهجة آمرة :

- أنت أقلنا حجمًا ووزنًا .. هل يمكنك تسلُّق الحبل إلى الخارج ؟!

اتجه فورًا إلى الحبل ، وهو يجيب فى حماسة :

- بالتأكيد .

قالها ، وبدأ يتسلَّق الحبل على الفور ، فغمغمت (ريهام) فى توتر :

- المدفع لن يحتمل ثقله طويلاً .

غمغمت (منى) بدورها ، هى تراقبه فى قلق :

- المهم أن يحتمل ، حتى يبلغ الفتحة .

كان (شريف) يتسلَّق الحبل بسرعة وخفة ، على الرغم من أنه لم يتدرَّب طويلاً على مثل هذه الأمور ، باعتباره مدنيًا ، تلقَّى ما يكفى لأداء مهمته فحسب ..

ومن أعلى ، دوت قرقعة مكتومة ، ومالت ماسورة المدفع الآلى قليلاً ، فشهقت (ريهام) فى ذعر ، فى حين تمتمت (منى) فى عصبية :

- احتملى .. احتملى بالله عليك .. عشر ثوان أخرى .. أرجوك .

تعلّق (شريف) بالحبل أكثر ، وراح يدفع جسده إلى أعلى ، فى حين مالت ماسورة المدفع الآلى أكثر وأكثر وانثنت ، و ...

وفجأة انفلتت الماسورة من ركن الفتحة ..

واتسعت عينا (منى) ، و(ريهام) عن آخرهما فى ذعر ، عندما سقط المدفع مع الحبل دفعة واحدة ..

فقد كان هذا يعنى ضياع الأمل فى الخروج من هذا القبر الرهيب ..

آخر أمل ..

* * *

انعقد حاجبا (يورى) فى شدة ، وهو يتلقّى محادثة هاتفية ، من قائد فريق القتلة المحترفين ، الذى أرسله لمواجهة (أدهم) ، فى مقر (جياروف) ، وقال فى صرامة غاضبة ، قبل أن ينهيها :

- فليكن .. أبلغنى التطوّرات أوّلاً فأولاً .

أشعل سيجارته فى عصبية ، وهو يلقى هاتفه الجوّال على المنضدة الصغيرة أمامه ، ويتراجع فى مقعده ، وقد رسم التوتر والغضب ملامحهما على وجهه فى وضوح ، فغمغمت (زوشا) فى حذر :

- هل .. هل تمكّنوا منه ؟!

هزّ رأسه نفيًا فى حدة ، ثم نفث دخان سيجارته فى قوة ، قائلاً :

- الأغبياء اقتحموا الحجرة ، وألقوا النار دون تمييز ، فقتلوا (فيدور) ، ثم لم يعثروا على أثر للمصرى .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تقول :

- أين ذهب إذن ؟!

لوَّح بذراعه فى غضب ، هاتفًا :

ـ ماذا دهاك يا (زوشا) ؟! رجل كهذا سيجد حتما ألف وسيلة للفرار ، مادام أغبياءونا قد وصلوا متأخرين ، ومادام الغضب والحمق قد أعمى عيونهم وعقولهم ، إلى الحد الذى يغتالون معه حليفنا ، بدلا من خصمنا .. سيخرج عبر ممرات التهوية .. من السطح .. من أى مكان ، وكأنه شبح لا ترصده عيونهم .

قالت فى توتر بالغ :

ـ ولكن مصرع (جياروف) سيثير مشكلات لاحصر لها .

هتف فى حدة :

ـ سنصبّها كلها على رأس المصرى .

ثم عاد ينفث دخان سيجارته ، قبل أن يضيف ، فى تفكير عميق :

ـ ولكن هناك عدة نقاط ، ينبغى أن نتوقَّف عندها .

سألته فى اهتمام حذر :

ـ مثل ماذا ؟!

بدا عليه التفكير أكثر ، وهو يتراجع محاولاً الاسترخاء فى مقعده ، وينفث دخان سيجارته فى بطء ، ويشير بيده ، قائلاً :

ـ أوَّلاً .. لماذا اختار (فيدور) بالتحديد ؟!

غمغمت فى حذر أكثر :

ـ لقد هاجم (يان) من قبل .

هزَّ رأسه نفيًا فى بطء ، وقال ، وكأنه يتحدَّث إلى نفسه :

ـ ولكنه لم يطلق النار على كفه وركبته ، كما فعل مع (فيدور) .

والتقى حاجباه بشدة ، مع لحظة الصمت ، التى لاذ بها ، قبل أن يتابع فى بطء شديد :

ـ كما لو أنه يجبره على الاعتراف بشىء ما .

قالت ، وقد بلغ حذرها منتهاه :

ـ (جياروف) لن يخبره بأى شىء ، حتى لو ..

قاطعها فى مقت عجيب :

ـ (جياروف) سينهار ويعترف ، لو أنهم قلَّموا أظفاره ، ولكموه مرة واحدة فى كرشه الضخم .

تساءلت فى قلق :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

عاد ينفث دخان سيجارته فى بطء ، ويشير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ ولكنه لم يحصل على ما يريد من (فيدور) .

شعرت بحيرة كبيرة ، وهى تسأله :

ـ وكيف يمكنك أن تجزم ؟!

استدار إليها فى بطء ، وتطلَّع إليها مباشرة ، وعلى الرغم من هذا فقد بدا كمن يتحدَّث إلى نفسه ، وهو يجيب :

ـ لأنه استولى على هاتف (فيدور) المحمول .

وقبل أن تلقى سؤالاً آخر ، سحب نفسًا عميقًا من سيجارته ، وقال فى صرامة ، على نحو يوحى بأنه يدلى بحقيقة ، لا تقبل الجدل :

ـ إنه يبحث عن رفاقه .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف فى غضب :

ـ لقد استوعب بعض الحقائق ، من ذلك الفيلم .

تساءلت ، وقد تضاعفت حيرتها :

ـ أى فيلم ؟!

مع شدة انعقاد حاجبيه ، بدا لها وكأنهما قد انعقدا ، حتى امتزجا ، وهو يعتصر تفكيره فى صمت تام ، قبل أن يعتدل فجأة ، ويلتقط هاتفه المحمول مرة أخرى ، قائلاً فى صرامة :

ـ لقد عرف كيف يتوصَّل إليهم .

ثم تألَّقت عيناه ، وهو يضرب أزرار الهاتف ، مستطردًا فى وحشية :

ـ وعندما يذهب إليهم ، لابد أن نكون فى انتظاره .

وأدار عينيه إليها مرة أخرى ، وهو يضيف :

ـ وأن تكون هذه هى الجولة الحاسمة .

وتضاعف تألُّق عينيه الدموى ، مع استطرادته الوحشية :

ـ والأخيرة .

وانتفض جسد (زوشا) ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ..

لقد بدا من الواضح أن المواجهة الحاسمة قد أصبحت قاب قوسين ..

أو أدنى ..

★ ★ ★

« كولونيل (كوربوف) .. » ..

هتف (كواليسكى) بالاسم فىَ غضب هادر ، وهو يقف أمام مكتبه ، فى ممر مبنى المخابرات الروسية ، فتوقَّف (سيرجى) ، والتفت إليه فى برود ، قائلاً :

ـ ماذا تريد يا جنرال ؟!

بدا (كواليسكى) ثائرًا ، وهو يهتف فى وجهه :

ـ اللعبة التى تلعبها لن تفلح أبدًا يا كولونيل (كوربوف) .

سأله (سيرجى) ، فى برود أكثر :

ـ أية لعبة يا جنرال ؟!

صاح (كواليسكى) فى حدة :

ـ اللعبة الحقيرة ، التى تحاول من خلالها انتزاع الثقة منى ، والفوز بكل ما حققته أنا ، طوال السنوات الماضية .. لعبة اتهامى ـ بالعمالة لمنظمة (المافيا) الروسية .

عقد(سيرجى) ساعديه أمام صدره ، وهو يسأله ببرود كالثلج :

ـ وهل أنت عميل لهم بالفعل يا جنرال ؟!

صاح (كواليسكى) ، على نحو أقلق كل العاملين بالطابق :

ـ كلاً بالطبع أيها الحقير .

غادر الكل حجراتهم ، ووقفوا فى الممر ، يتطلّعون فى قلق إلى الرجلين ، و(سيرجى) يقول فى برود ، تسلّلت إليه لمحة ساخرة :

ـ لماذا القلق والغضب إذن ؟!

احتقن وجه الجنرال (كواليسكى) فى غضب ، وسحب مسدسه فى حركة عصبية ، هاتفًا :

ـ أيها الـ ...

وقبل أن يتمّ عبارته ، انقضّ عليه (سيرجى كوربوف) فجأة ، وأمسك معصم اليد التى سحبت المسدس ، ورفعها إلى أعلى ، وهو يدفع الجنرال أمامه فى خشونة ، ليلصقه بالجدار ، ويقترب بوجهه منه ، قائلاً فى صرامة مخيفة :

ـ نعم ياجنرال (كواليسكى) .. أنا أتهمك بالعمالة .. وبالخيانة أيضًا .. وأتهمك بتدبير محاولة قتلى ، وإلصاق التهمة بـ (أدهم صبرى) ورفاقه .

اندفع الرجال نحوهم ، فى محاولة لفضّ الاشتباك ، وهتف أحدهم فى قلق :

ـ كولونيل (كوربوف) .. جراحك تنزف بشدة .

لم يبد على (سيرجى) أنه قد سمع ما قاله الرجل ، أو أنه يهتمّ بالدماء التى أغرقت قميصه ، وهو يضيف ، فى وجه (كواليسكى) :

ـ ولن أهدأ حتى أسحقك سحقًا ياجنرال .

قال (كواليسكى) ، بكل مقت الدنيا :

ـ وأنا سأقتلك ياكولونيل .. أنت الآن رجل ميت .. اعتبر نفسك كذلك .

التقت عيونهما ، بنظرة تحمل كل المقت والتحدّى من الجانبين ، و(سيرجى) يقول :

ـ سنرى يا جنرال .. سنرى .

وترك معصمه ، ليتراجع بحركة مفاجئة ، ثم اندفع يبتعد عبر الممر ، فى حين هتف (كواليسكى) بالرجال من حوله :

ـ أرأيتم ؟! هل شاهدتم ما حدث ؟! كولونيل يعتدى على جنرال .. كلكم شهود على هذا .

ثم استدار يلوّح بيده الممسكة بالمسدس ، صارخًا :

ـ سأحاكمك يا (كوربوف) .. سأحاكمك .

ولكن (سيرجى) لم يتوقَّف لحظة واحدة ، بل واصل طريقه بكل ثبات وحزم ..

ففى رأسه ، كان يدور الكثير ..

والكثير جدًّا ..

* * *

التقط (مدحت) نفسًا عميقًا ، وهو يدلف مع (أدهم) إلى المقر السرى لمركز المتابعة والمراقبة المصرى ، فى قلب (موسكو) ، وهتف :

ـ يا إلهى ! لم أتصوَّر أبدًا أننا سنعود سالمين .

لم يعلِّق (أدهم) على عبارته ، وهو يناول (سامى) هاتف (جياروف) المحمول ، قائلاً بلهجة آمرة حازمة :

ـ أريد تقريرًا مفصلاً عن كل أرقام الهواتف ، المسجلة هنا .

قال (سامى) فى حماسة :

ـ هذا يحتاج إلى بعض الوقت .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ ابذل قصارى جهدك ، فكل دقيقة لها ثمنها الآن .

ثم اتجه إلى حجرته بخطوات واسعة حازمة ، وهو يتساءل :

ـ أما زالت (ناديا) نائمة ؟!

أتاه صوتها مفعمًا بالنعاس ، وهى تقول :

ـ أنا هنا .

توقَّف (أدهم) ، والتفت إليها ، وهى تقف بباب حجرتها ، وقال بالروسية :

ـ لقد نطقت سؤالى بالعربية .

تثاءبت فى إرهاق ، قائلة :

ـ وأنا لم أفهم منه سوى اسمى .

تابعها ببصره ، وهى تتجه نحو حجرة المعيشة ، وتلقى نفسها على الأريكة فى تهالك ، متسائلة :

ـ هل عثرت على رفاقك ؟!

أجاب فى تحفُّظ :

ـ علمنا أنهم فى (لينتجراد) ، ولكننا لم نتوصَّل إلى التفاصيل بعد .

انعقد حاجباها ، وهى تتثاءب مرة أخرى ، قبل أن تقول :

ـ (لينتجراد) ؟! إنها منطقة نفوذ (جياروف) .

عبارتها الأخيرة جعلتهم يتبادلون نظرة دهشة متوترة ، قبل أن يسألها (أدهم) ، فى بطء وحذر :

ـ ألديك فكرة جيِّدة عن تنظيم (المافيا) الروسية ؟!

تثاءبت للمرة الثالثة ، وهى تشير بيدها ، قائلة :

ـ كنت أزمع تقديم برنامج عنهم ، وجمعت كل ما أمكننى من المعلومات ، ولكن رؤسائى رفضوا الفكرة تمامًا .

ثم هزَّت رأسها ، وكأنها تنفض النعاس عن وجهها ، قبل أن تتساءل فى اهتمام بالغ :

ـ إنه (جياروف) .. أليس كذلك ؟!

اقترب (أدهم) منها ، وسألها فى اهتمام :

ـ لو أنه هو ، فأين يمكن أن يخفيهم فى (لينتجراد) ؟!

بدت عليها علامات التفكير ، وهى تجيب :

ـ يوجد مكانان صالحان فحسب .. معامل الألبان ، التى يمتلكها شرق (لينتجراد) ، أو صوامع الغلال ، على بعد كيلو مترين ، قبل مدخل المدينة الرئيسى .

اعتدل (أدهم) ، والتقى حاجباه ، وهو يتمتم :

ـ على بعد كيلو مترين !!

ثم التفت إلى (سامى) ، قائلاً :

ـ ابحث عن رقم صوامع الغلال هذه ، فى هاتف (جياروف) .

أشار (سامى) بسبَّابته ، مجيبًا فى حماسة :

ـ لقد أجرى اتصاله بها سبع مرات ، خلال اليومين الماضيين ، وتلقى منها ستة اتصالات .

هتف (مدحت) :

ـ إنها هى !

قال (أدهم) ، وهو يفكّر فى عمق :

ـ المكان مثالى ومناسب تمامًا ، ولكن ..

صمت قبل أن يتمّ عبارته ، فسأله (مدحت) فى قلق حذر :

ـ ولكن ماذا ؟!

بدا صوت (أدهم) أكثر قلقًا منه ، وهو يقول :

ـ خصمنا ذكى أكثر من اللازم ، على الرغم من

جنونه ، وعندما يعلم أننا قد هاجمنا (جياروف) ، واستولينا على هاتفه المحمول ، سيدرك هدفنا على الفور ، وهذا يعنى أن الوقت ليس فى صالحنا .

نقلت (ناديا) بصرها بينهما فى حيرة ، وهى لاتفهم شيئًا من حديثهما بالعربية ، فى حين تساءل (مدحت) فى توتر :

ـ ألا توجد وسيلة لبلوغ (لينينجراد) ، بأقصى سرعة ممكنة ؟!

أجابه (سامى) :

ـ المسافة من (موسكو) إلى (لينينجراد) تزيد على الألف كيلو متر ، ولا توجد طائرات إلى هناك ، قبل مساء اليوم ، وأية وسيلة أخرى للسفر ، مهما بلغت سرعتها ، ستحتاج إلى خمس ساعات على الأقل .

هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وقال فى توتر حازم :

ـ لوصحّ ما أخشاه ، فليست لدينا ساعة واحدة .

هتف (سامى) :

ـ ساعة واحدة ؟! يا إلهى ! لكى تبلغ (ليننجراد) بهذه السرعة ، ينبغى أن تنطلق أسرع من الصوت .

تألَّقت عينا (أدهم) ، وهو يردِّد :

ـ أسرع من الصوت ؟!

الأسلوب الذى نطق به العبارة ، جعل الثلاثة يلتفتون إليه فى انفعال ، حتى (ناديا) ، التى لم تفهم حرفًا واحدًا مما نطقه ..

فبريق عينيه ، وتلك الانفعالات القوية ، التى انحفرت بوضوح على وجهه ، كانت تشفَّ بقوة عن تلك الفكرة ، التى تألَّقت بشدة فى رأسه ..

الفكرة المجنونة ..

تمامًا .

★ ★ ★

٣ ـ بين الغيوم ..

بمنتهى العنف ، اقتحم رجال الشرطة المصرية ذلك الوكر ، فى أطراف (القاهرة) ، وأطلق قائدهم رصاصات مسدسه فى الهواء ، وهو يهتف فى صرامة :

ـ فليثبت كل فى مكانه .. أية حركة ستطلق النار على صاحبها مباشرة .

امتقعت وجوه كل رواد الوكر ، وألقى معظمهم من يده ما يحمله من مخدرات ، فى حين تراجع شخص نحيل طويل فى توتر ، ثم لم يلبث أن دار على عقبيه ، وانطلق يعدو عبر باب خلفى ، بأقص سرعته ، فهتف قائد فريق الاقتحام :

ـ أريده حيًّا .

وثب أحد ضباط العمليات الخاصة عبر المكان ، واندفع عبر الباب الخلفى ، ليعدو خلف ذلك النحيل ..

وبكل ذعره ، راح النحيل يصرخ ، ويصرخ ، وهو يلهث فى عنف ، وأنفاسه تتقطع ، مع ضعف جسده ؛ بسبب السموم المخدِّرة ، التى اعتاد تناولها ..

وقبل أن تمضى دقيقة واحدة ، لحق ضابط الشرطة بالنحيل ، ووضع يده على كتفه فى صرامة ، قائلاً بقوة :

ـ لا تحاول يا رجل .

استدار النحيـل ، فى حدة وعصبية ، واستلّ من حزامه خنجرًا ، حاول أن ينقضّ بـه على الضـابط ، الذى أمسك معصمه بحركة قوية سريعة ، ولواه فـى قوة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ المقاومة ستزيد موقفك صعوبة أيها الحقير .

ثم هوى على فكه بلكمة ، مستطردًا :

ـ ولديك بالفعل ما يكفى .

انهار النحيل ، وراح يبكى فى عنف ، والضابط يدفعـه أمامه فى خشونة ، عائدًا إلى الوكر ، ليقول لقائده فى حزم :

ـ تم تنفيذ المهمة .



استدار النحيل ، فى حدة وعصبية ، واستلّ من حزامه خنجرًا ، حاول أن ينقضّ به على الضابط ..

أشار إليه قائده ، قائلاً :

ـ إنه مسئوليتك الآن .. سنصطحب الآخرين إلى مديرية الأمن ، وخذ أنت الرجل إلى غرفة عمليات الطوارئ فورًا .. إنهم ينتظرونه الآن .. وأسرع باللّه عليك ، فلكل ثانية ثمنها .

لم تمض على قوله هذا دقائق عشر ، حتى كان النحيل يرتجف فى ارتياع ، وهو يقف أمام ثلاثة من قيادات الشرطة ، ورجل المخابرات فى ثيابه المدنية ..

وفى صرامة ، قال أحد قيادات الشرطة :

ـ (ثروت عسران) .. الشهير بـ (اكسبريس) .. مروّج مخدرات ، مسجَّل خطر ، ومطلوب فى ثلاث قضايا .

لم يفهم مروّج المخدرات الصغير ، لماذا يهتمّ ثلاثة من قيادات الشرطة بأمره ، ولماذا يتمّ إحضاره إلى هذا المكان ، الذى يوحى كل ما فيه بالأهمية والخطورة ، على الرغم من أنه ليس أحد كبار تجار المخدرات ، ولكنه ، وعلى الرغم من حيرته ، غمغم فى رعب :

ـ تحت أمرك يا سيادة اللواء .

مال آخر من قيادات الشرطة ، ليسأله فى صرامة أكثر :

ـ أنت مورِّد المخدرات الرئيسى للمهرِّب (جريكو) .. أليس كذلك ؟!

انكمش (ثروت) على نفسه فى خوف ، وهو ينقل بصره الزائغ بين الجميع ، مجيبًا فى حذر زائد متوتر :

ـ (جريكو) ؟! ومن (جريكو) هذا ؟! لم أسمع به من قبل !

اشتعلت عيون رجال الشرطة غضبًا ، حتى تمنى الرجل لو انشقّت الأرض وابتلعته ، لولا أن نهض رجل المخابرات ، وقال فى هدوء ، بدا عجيبًا للغاية ، وسط الموقف شديد التوتر :

ـ معذرة أيها السادة .. هل يمكنكم أن تتركونى وحدى بعض الوقت ، مع السيِّد (ثروت) .

لقب (السيِّد) هذا أثار حفيظة قيادات الشرطة ، ودهشة مروّج المخدرات البالغة ، على نحو جعله

يحدّق فى وجه رجل المخابرات بذهول خائف حذر ، فى حين قال أحد قيادات الشرطة ، فى غضب لم يستطع إخفاءه :

- فليكن .. إنه لك .

ثم أضاف ، وهو يتجه مع رفيقيه إلى الخارج :

- مادام فى هذا مصلحة الوطن .

ابتسم رجل المخابرات ، وكأنما يدرك أن طبيعة عمل الشرطة تختلف حتمًا ، عن طبيعة عمل المخابرات ، وانتظر حتى أصبح وحده فعليًّا مع مروّج المخدرات النحيل فى الحجرة ، قبل أن يمنحه ابتسامة هادئة ، وهو يشير إلى مقعد قريب ، قائلاً :

- اجلس يا (ثروت) .

تراجع المروّج ، وهو يسأله فى خوف حذر :

- ماذا ستفعل بى ؟!

تجاهل رجل المخابرات السؤال تمامًا ، وهو يميل نحوه ، قائلاً ، بنفس الهدوء العجيب ، وابتسامته لاتفارق شفتيه :

- نحن نعلم بأمر علاقتك بـ (جريكو) ، وبأنك المورّد الخاص للمخدرات له ، ولكن هذا لا يعنينا فى الوقت الحالى ، حتى إننا لن نوجّه إليك أية اتهامات بشأنه .

تطلّع إليه النحيل فى شك ، وهو يتساءل فى حذر :

- لماذا فعلتم كل هذا إذن ؟!

هزّ رجل المخابرات كتفيه ، وقال فى هدوء :

- كان من الضرورى أن نحضرك .

ثم نظر فى عينيه مباشرة ، وأضاف فى بساطة :

- لماذا لا تجلس لنتحدّث أفضل ؟!

بدت لهجته ، على الرغم من بساطتها ، حازمة آمرة ، حتى إن النحيل قد جلس فى آلية ، وهو يتمتم :

- (جريكو) كان مجرّد زبون .

سأله الرجل فى صرامة مباغتة :

ـ لماذا استخدمت كلمة (كان) ؟!

ارتبك (ثروت) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ إننى لم أقصد شيئًا ، ولم ..

مال رجل المخابرات نحوه بحركة حادة ، وقال فى صرامة شديدة :

ـ لماذا يا (ثروت) ؟!

اتسعت عينا مروِّج المخدرات فى رعب ، ثم لم يلبث جسده كله أن ارتجف ، ودمعت عيناه بشدة ، وانخفض صوته حتى بلغ حافة الهمس ، وهو يقول :

ـ أنا لم أقتله .. أقسم لك .

تراجع رجل المخابرات فى بطء ، وهو يسأله :

ـ من فعلها إذن ؟!

هزَّ رأسه فى قوة ، وانحدرت دموعه على وجهه ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .. لست أدرى .

ثم توقَّف بغتة ، مضيفًا فى حذر عصبى :

ـ ربما ..

نطقها ، ثم توقَّف دفعة واحدة ، فقال رجل المخابرات يستحثة ، فى هدوء :

ـ ربما ماذا ؟!

رمقه النحيل بنظرة شديدة الحذر ، وهو يقول :

ـ هناك ذلك الرجل الآخر ، الذى اتصل به ، فى الأيام الأخيرة .

تألَّقت عينا رجل المخابرات ، وقال فى اهتمام :

ـ الرجل الآخر ؟! أى رجل آخر .

تردَّد (ثروت) لحظة ، ثم اندفع يقول :

ـ رجل أشقر ، يتحدَّث دائمًا فى صرامة ، وعيناه تلتمعان على نحو مخيف .. لست أدرى فيم كانا يتحدثان ، فاللغة التى استخدماها غير مألوفة .. ربما هى اليونانية أو ...

قال رجل المخابرات فى حزم :

ـ أو الروسية .

ارتفع حاجبا (ثروت) ، وكأنما أدهشه القول ، وقال :

ـ نعم .. أعتقد إنها كذلك .. إنها تماثل لغة تلك الراقصة ، التى ..

قاطعه رجل المخابرات ، فى حزم أكثر :

ـ هل تعرف أين يقيم ذلك الأشقر ؟!

هزَّ النحيل رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلَّا .. أقسم لك .. كلا ..

تراجع رجل المخابرات ، وتطلَّع إلى النحيل بنظرة حادة صارمة ، فكرَّر هذا الأخير فى انهيار :

ـ أقسم لك .

ظلّ رجل المخابرات المصرى يتطلَّع إليه بضع لحظات ، قبل أن يسأله :

ـ هل يمكنك أن تصف ذلك الأشقر بدقة ؟!

حدَّق فيه النحيل لحظة فى دهشة ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

تألَّقت عينا رجل المخابرات ، وهو يقول :

ـ عظيم .

فبالنسبة إليه ، كانت هذه خطوة جديدة ، تجعلهم أكثر قربًا من الهدف ..

الهدف الذى يتحتَّم بلوغه ، قبل أن تحين لحظة الصفر ..

وإلا ...

★ ★ ★

على الرغم من آلامه ومتاعبه ، وجراحه التى اضطرته لإحاطة وسطه كله بالضمادات ، وقف (سيرجى كوربوف) ثابتًا ممشوقًا ، فى حجرة مكتب

(فيدور جياروف) ، التى تحولّت إلى بركة من الدم ، بعد رفع جثة هذا الأخير منها ، واستمع فى اهتمام إلى أحد الحراس العمالقة ، وهو يقول فى عصبيةّ :

ـ الزائر كان يُدعى (كواليسكى) .. الجنرال (جوزيف كواليسكى) .. اسمه وصورته مسجلان فى كمبيوتر الأمن عند المدخل .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول :

ـ الجنرال (كواليسكى) ؟! ولكن هذا مستحيل يا رجل !

مستحيل تمامًا ! ؛ ففى التوقيت الذى ذكرته ، كنت شخصيًا مع الجنرال (كواليسكى) فى الإدارة .

أومأ الحارس الضخم برأسه متفهمًا ، وتحسَّس كدمة كبيرة فى فكه ، قبل أن يقول فى انفعال :

ـ هذا صحيح بالتأكيد ، فالزعيم أطلق إشارة الخطر ، ثم حاصرنا ذلك الزائف ، وانتزعنا عن وجهه قناعًا ، و ...

قبل أن يتمّ إفادته ، أشار إليه (سيرجى) فى حزم ، قائلاً :

ـ فهمت .

وعاد حاجباه ينعقدان وهو يضيف :

ـ ولكن هذا عجيب للغاية .

أدار عينيه مرة أخرى فى المكان ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ إنه لم يكن قط دمويًا .

ثم استدار إلى الحارس الخاص ، مستطردًا فى شراسة :

ـ لذا فهناك أمر لم تذكره بعد .

قال الحارس فى صرامة عصبية :

ـ لقد ذكرت كل ما حدث ، ولن ..

فجأة ، انقضّ عليه (سيرجى) ، ولكمه فى معدته

بكل قوته ، ثم هوى على فكه وأنفه بلكمتين عنيفتين سريعتين ، قبل أن ينتزع مسدسه من حزامه في صرامة ، ويلصق فوهته بأسفل ذقن الرجل ، قائلا فى غضب هادر :

- ربما كانت لدى وسيلة لإنعاش ذاكرتك إيها الوغد ، فإما أن تفصح عن كل ما أخفيته ، وإلا حقنتك بمصل الحقيقة هذا ، الذى سيرسلك إلى الجحيم بالبريد المستعجل ..

امتقع وجه الحارس ، وهو يقول فى عصبية :

- هذا التصرُّف غير قانونى يا كولونيل .

دفع (سيرجى) فوهة مسدسه فى قسوة أكثر ، وهو يقول :

- عظيم .. قدم شكوى بهذا إلى شياطين الجحيم .

قالها ، وسحب إبرة مسدسه فى حزم صارم ، جعل الحارس يهتف :

- مهلاً .. لم أقل : إننى لن أخبرك .

دفع (سيرجى) فوهة مسدسه بقسوة أكثر وأكثر ، وهو يقول :

- عظيم .. كلى آذان مصغية .

لم تكد شفتا الحارس تنفرجان ، حتى اندفع أحد رجال (سيرجى) إلى المكان ، وهو يهتف :

- خبر مذهل يا كولونيل .

قالها ، وتوقَّف لحظة ، يحدِّق فى المشهد بدهشة ، فصاح به (سيرجى) فى صرامة شديدة :

- أى خبر ؟!

مال الرجل على أذنه ، وهمس بالخبر ، فانعقد حاجبا (سيرجى) فى شدة ، وغمغم :

- مستحيل !

فما أخبره به الرجل ، كان يندرج حتمًا تحت خانة المستحيل !

وبكل المقاييس ..

* * *

« انتباه ! »

أطلق جندى الحراسة ، فى المطار الحربى القديم ، على بعد عشرة كيلومترات من (موسكو) الهتاف فى قوة ، وهو يضرب كعبيه ببعضهما ، ويشدّ قامته فى وقفة عسكرية صارمة ، فور رؤيته للسيارة ، التى توقّفت أمام البوّابة الرئيسية مباشرة ، والتى تحمل على مقدمتها علم (روسيا) ، مع لوحات تفيد بانتمائها إلى مؤسسة الرياسة هناك ..

وفى حزم من اعتاد إلقاء الأوامر ، أطلّ قائدها برأسه ، من النافذة المجاورة له ، وناول الجندى بطاقة هوية خاصة ، وهو يقول :

- الجنرال (مالينوف) .. افتح البوّابة .

التقط الجندى البطاقة ، وتطلّع إليها بضع لحظات فى اهتمام ، ثم دسّها فى جهاز خاص ، فحص الشريط المغنطيسى داخلها ، قبل أن يضاء مصباح أخضر صغير فى الجهاز ، معلناً صحة البطاقة ، فأعادها الجندى إلى الجنرال فى احترام ، قائلاً فى حذر :

- معذرة يا سيِّدى الجنرال ، ولكن الأوامر تحتم معرفة سبب الزيارة .

تراجع الجنرال ، قائلاً فى صرامة شديدة :

- التفتيش .

لم يستوعب الجندى الأمر ، خاصة وأن هذا المطار لايحوى سوى بضع طائرات ، من طراز (ميج) ، يعود طرازها إلى أواخر الثمانينات ، ولم تعد تستخدم إلا فى عمليات البحث ودوريات مراقبة الحدود فحسب ، إلا أنه ، وأمام الموقف المباشر ، وعلى الرغم من حيرته ، لقدوم جنرال على هذا المستوى ، دون سائق خاص يقود سيارته ، لم يكن يملك سوى فتح البوّابة أمام السيارة ، وتأدية التحية العسكرية بكل قوة ..

وفى هدوء ، عبر الجنرال البوّابة بسيارته ، فقال الجندى فى اهتمام :

- هل ترغب فى لقاء الطيارين يا سيِّدى الجنرال ؟!

أجابه الجنرال فى صرامة :

- كلا .. الطائرات فحسب .

مرة أخرى لم يفهم الجندى الأمر أو يستوعبه ، إلا أنه اكتفى بهز رأسه ، وبالسخط فى أعماقه ، عن هذه التصرفات العشوائية ، لرجال القيادة ..

أما الجنرال نفسه ، فقدا انطلق بسيَّارته على الفور إلى ممرات الإقلاع ، وأوقفها إلى جوار ثلاث طائرات (ميج) مقاتلة ، فالتفت إليه رجال الفحص والصيانة فى حيرة قلقة متسائلة ، إلا أنه غمغم فى سخرية ، وهو يغادر السيارة فى هدوء حازم :

- (قدرى) هذا عبقرى بحق .. الهوية العسكرية التى صنعها ، خدعت حتى أجهزة الفحص الإليكترونية .

اتجه فى صرامة نحو الطائرات ، وأشار بيده للفنيين ، قائلاً :

- أيها مستعدَّة للإقلاع ؟!

أجابه أحدهم ، فى شىء من الحذر ، صنعته غرابة الموقف :

- هذه .. لقد تم تزويدها بصاروخين ، وخزان وقودها ممتلئ ، وتمت مراجعة دوائرها .

مطَّ (أدهم) شفتيه ، متقمِّصًا شخصية الجنرال الروسى الصارم العريق ، الذى لايرضيه شىء ، ثم اتجه نحو الطائرة ، وتسلَّق سلمها القصير ، قائلاً بصرامة أكثر :

- ولماذا وحدها ؟! المفترض أن تكون كل الطائرات مستعدة ومتأهبة للإقلاع دومًا !

تبادل الرجال نظرة حائرة متوترة ، قبل أن يجيب أحدهم ، فى حذر أكثر :

- هذ الطائرات لم تعد مقاتلة بالمعنى المفهوم ياسيِّدى الجنرال .

دسَّ (أدهم) جسده داخل كابينة القيادة ، وهو يقول فى صرامة :

- من قال هذا ؟!

انعقدت حواجب الرجال فى توتر شديد ، عندما أدار محرِّك الطائرة بالفعل ، وتبادلوا نظرة شديدة العصبية ، قبل أن يهتف أحدهم :

- سيِّدى الجنرال .. هذا غير قانونى .

صاح به (أدهم) ، فى صرامة شديدة :

ـ اصمت .

ثم أغلق كابينة القيادة ، وهو يدفع المقود إلى الأمام ، فبدأت الطائرة تتحرَّك على الممر ، مما ضاعف من توتر الرجال وعصبيتهم ، وبخاصة عندما اندفع أحد الطيارين خارج استراحتهم ، صائحًا فى ذعر :

ـ ماذا يحدث هنا ؟!

دفع (أدهم) المقود إلى الأمام أكثر ، فزادت سرعة الطائرة على ممر الإقلاع ، وصاح الطيار ، وهو يعدو خلفها :

ـ أوقفوا الطائرة .. يا إلهى ! ماذا يحدث هنا ؟! ماذا يحدث هنا ؟!

فى هذه اللحظة فقط ، أدرك الرجال أن مخاوفهم وشكوكهم كانت فى محلها ، وأصابتهم حالة من الارتباك ، جعلتهم يعدون فى كل الاتجاهات بلا هدف ، فى حين اندفع الطيَّار نحو طائرة أخرى ، وهو يصرخ :

ـ أطلقوا إنذار الطوارئ .. أخطروا القاعدة المركزية فورًا .

ووثب إلى الطائرة ، مواصلاً فى ارتياع :

ـ يا إلهى ! كيف يمكن أن يحدث هذا ؟! كيف ؟!

انطلق هتافه الأخير ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها طائرة (أدهم) عن الأرض ، وسيارات أمن المطار تطاردها فى استماتة ، وقائدها يصرخ :

ـ أطلقوا النار .. امنعوه من الإقلاع بأى ثمن .

انطلقت الرصاصات خلف الطائرة كالمطر ، لكن (أدهم) جذب إليه المقود فى قوة ومهارة ، فأقلعت (الميج) ، وانطلقت فى سماء (موسكو) ..

ومن خلفها ، انطلقت الطائرة الثانية ، وارتفعت بدورها ، وقائد أمن المطار يصرخ ، بكل غضب الدنيا :

ـ إنها كارثة ! فضيحة ! كيف يمكن أن تُسرق مقاتلة حربية هكذا ، فى وضح النهار ؟! أريد إجراء تحقيق عاجل .. فورًا .

ضاعت صرختـه فى الهواء ، مع دوى محركات (الميج) الثانية ، وهـى تقلـع خلـف (أدهـم) ، الذى انطلقت طائرته بتسـارع منتظم ، فـى اتجـاه الشـمال الغربى ..

نحو (لينـنجراد) تمامًا ..

ولأن الطيار الروسى الذى يطارده ، طيار محترف قديم أدرك ما يعنيه الانطلاق إلى هـذه الزاويـة بـالتحديد ، والتقط مسماع جهاز الاتصال اللاسلكى ، ليهتف :

ـ إنذار عام .. إنذار عام .. مجهول نجح فى اختطاف مقاتلة من طراز (ميج) .. من مطار الطوارئ (X-3) .. المقاتلة تتجه مباشرة نحو (لينـنجراد) .. استعدوا لاعتراضها .

استقبل جهاز اللاسلكى ، فى طائرة (أدهـم) العريقة ، الرسالة نفسها ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة عجيبة ، لاتتناسب قط مع دقة الموقف ، وكأنما استعاد مشـاعر افتقدها طويلاً ، وغمغم :

ـ يبدو أنك ستضطر لبعض العبث يا (أدهم) .

قالها ، وزاد من سرعة مقاتلته ، لتبلغ مايقارب سرعة الصوت ، وقد تألَّقت عيناه ببريق مدهش ..

بريق رجل يستعيد حياة ، افتقدها لردح من الزمن ..

وعبر أجهزته ، رأى المقاتلة الأخرى تتسارع بدورها ، وقائدها ينـاور لينقضّ عليـه مبـاشرة ، فجذب مقود طائرتـه ، وارتفـع بهـا أكثر وأكثر ، ليخترق الغيـوم الكثيفة ، وينطلق بينها بعض الوقت ..

وبدوره ، انطلق الطيَّار الروسى خلفه ، وهو يغمغم :

ـ ماذا يتصوَّر أنه يفعل ؟! إنها مناورة قديمة كالدهر .

راقب أجهزته كلها ، وهـو يخترق السحب ، وينطلق نحو الشمال الغربى ، وواصل فى شىء من التوتر :

ـ من سوء حظ ذلك القرصان ، أنه يجهل أن طائرته هى الوحيدة ، التى لم يتم تزويدها بعد بأجهزة الكشف والتوجيه الحديثة .

قالها ، وهو يضغط زرًّا صغيرًا أمامه ، فأضيئت شاشة متوسِّطة ، وظهر عليها ظلّ أحمر ، يحدِّد موقع طائرة (أدهم) ، وارتفاعها ، واتجاهها ، و ...

وتألّقت عينا الروسى ، وهو يقول :

ـ سيؤسفنى كثيرًا أن أسقط طائرة جميلة كهذه ، ولكن خذها منى أيها السارق .

وضغط زرًّا آخر ، فانطلق أحد صاروخى الطائرة ، نحو طائرة (أدهم) ..

مباشرة ..

* * *

بهدوء عجيب ، رفع (أسعد) ، مدير مكتب المخابرات المصرية فى (موسكو) عينيه يتطلّع إلى (سيرجى كوربوف) ، الذى دلف إلى زنزانته ، قبل أن يبتسم ، فى مزيج من السخرية والإرهاق ، قائلًا :

ـ ماذا حدث ؟! هل عجز الجنرال (كواليسكى) عن مواصلة إهانتى ، فأسندوا الأمر إليك يا كولونيل .

رمقه (سيرجى) بنظرة باردة ، وتجاهل سؤاله الساخر تمامًا ، وهو يجلس على طرف الفراش الصغير الوحيد بالحجرة ، قائلًا :

ـ (أدهم) يقاتل هذه المرة كالوحوش .

كان من التقليدى أن ينفى (أسعد) الأمر ، بل وأن ينكر حتى معرفته بـ (أدهم) ، إلا أنه ، وعلى العكس من هذا ، أجاب فى حزم :

ـ من أجلكم .

والمدهش أيضًا أن (سيرجى) قد وافقه بإيماءة من رأسه ، قائلًا :

ـ هذا صحيح .

وصمت لحظة ، وسط دهشة (أسعد) ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ـ ولكنهم يجهلون هذا .

التقى حاجبا (أسعد) ، وهو يسأله فى حذر :

ـ هل تدركه أنت ؟!

صمت (سيرجى) طويلاً هذه المرة ، وكأنما يستشير عقله حول الجواب المناسب ، قبل أن يتجاهل الأمر برمته ، ويقول :

ـ لقد تجاوز الحدود كلها هذه المرة .

خفق قلب (أسعد) مع العبارة ، وهو يتساءل بمنتهى الحذر :

ـ ماذا فعل ؟!

تراجع (سيرجى) ، وهو يقول فى بطء :

ـ لقد اختطف مقاتلة حربية .

اتسعت عينا (أسعد) ، وهو يهتف فى ذهول :

ـ اختطف ماذا ؟!

مطَّ (سيرجى) شفتيه ، وكأنما يشعر بعدم الحاجة لإجابة التساؤل الذاهل ، واكتفى بالتلويح بيده ، فغمغم (أسعد) ، والذهول لم يفارقه بعد :

ـ وكيف يمكن أن يفعل هذا ؟! أين نظم الأمن والحراسة ؟!

هزَّ (سيرجى) رأسه ، قائلاً :

ـ هذا لن يوقف (أدهم) .

ثم نهض من مكانه ، وبدا وكأنما يقاوم غضبًا مكبوتًا فى أعماقه ، قبل أن يتابع :

ـ وهناك الفساد أيضًا .

ردَّد (أسعد) فى حذر :

ـ الفساد ؟!

أجابه (سيرجى) ، وقد بدا شاردًا ، على غير المألوف :

ـ نعم .. الفساد .. الفساد الذى استشرى فى مجتمعنا ، حتى تسلَّل إلى كل شىء وكل مكان ، فمشكلة الفساد الرئيسية هى أنه يتحوَّل مع إهماله إلى تنين هائل ، لايعود باستطاعتك التصدّى له ، أو حتى مواجهته .. تنين يلتهم كل إنجازاتك ومنجزاتك بلا رحمة .

ثم استدار إلى (أسعد) ، مستطردًا فى صرامة بلاحدود :

ـ لذا فمن واجب كل رجل شريف أن يتصدّى له ، وبمنتهى العنف والقوة والحزم .

غمغم (أسعد) ، وقد بهرته تلك الانفعـالات ، التى تموج بها كلمات (سيرجى) :

ـ بكل تأكيد .

واعتدل ، وهو يعقد حاجبيه ، مضيفًا فى حزم :

ـ وبأسلوب شريف أيضًا .

تطلَّع إليه (سيرجى) ، مكررًا تعليقه السابق :

ـ بكل تأكيد .

قالها ، ثم دسّ يده فى جيبه ، وأخرج منـه جواز سفر (أسعد) الدبلوماسى ، وناوله إياه ، قائلاً فى حسم :

ـ هيا بنا .. سنخرج من هذا المكان ، الذى لايليق بزميل .

التقط (أسعد) جواز سفره فى حذر ، وهو يقول :

ـ وماذا عن (أدهم) ؟!

صمت (سيرجى) بعض الوقت ، قبل أن يجيب فى حزم صارم :

ـ سنبذل قصارى جهدنا .

لم يكد ينطقهـا ، حتى ارتفع رنيـن هاتفه الخاص ،

فالتقطه من جيبه فى سرعة ، وقال فى برود صارم :

ـ ماذا هناك ؟!

وانعقد حاجباه الكثان فى شدة ، وهو يستمع إلى محدِّثه ، قبل أن يقولٍ فـى صرامـة ، تمتزج بلمحة عصبية ، يندر أن تتسلل إلى نبراته :

ـ سأتابِع هذا الموقف بنفسى .. أريد معرفة التفاصيل أوّلاً فأولا .. كل التفاصيل ، مهما بدت بسيطة ، أو حتى تافهة .. هل تفهم ؟!

لم يكد يُنهى المحادثة ، حتى هتف به (أسعد) ، بكل لهفة وتوتر الدنيا :

ـ ماذا حدث ؟!

أدار (سيرجى) إليه عينين ملتهبتين ، وهو يجيبه بكلمة واحدة :

ـ كارثة .

وهوى قلب (أسعد) بين قدميه ..

بمنتهى العنف .

* * *

٤ـ الانفجار..

فجأة ، انفلت المدفع الآلى من ركن فتحة السقف ، فى صومعة الغلال ، علـى مشارف (ليننجراد) ، ووجه (شريف) نفسه يسقط ، مع آخر أمل فى النجاة من ذلك الموقف الرهيب ..

وبسرعة عقل اعتاد التفاعل مع أنظمة الكمبيوتر ، أدرك (شريف) طبيعة الموقف وخطورة الفشل ..

وبحركة آلية غريزية ، دفع جسده إلى الأمام ، وهو يطلق شهقة عنيفة ، كادت تتحول إلى صرخة قوية ، من شدة ذعره وارتياعه ، وخوفه من السقوط ، بعد أن بلغ هذه المرحلة ، التى جعلته قاب قوسين أو أدنى من النجاة ..

لثوان ، خُيِّل إليه أن جسده سيسقط أرضًا ، وأن الفتحة ستبتعد ..

وتبتعد ..

وتبتعد ..

ولكنه ، وبدلاً من هذا ، رآها تقترب ، كما لو أن يدًا عملاقة قد دفعته إلى أعلى ، فى محاولة أخيرة يائسة ..

ثم لامست أصابعه طرف الفتحة ..

وانقبضت دفعة واحدة ..

وتعلَّق بإطارها ..

وبكل قوته ..

اتسعت عيون (منى) و(ريهام) ، وهما تحدقان فى (شريف) ، الذى تعلق بإطار الفتحة بيد واحدة ، وهتف ، وهو يلهث فى قوة :

- يا إلهى ! يا إلهى ! يا إلهى !

هتفت (ريهام) :

- يدك الأخرى يا (شريف) .. لقد فعلتها .. ادفع جسدك وستبلغ الفتحة .. هيا .



اتسعت عيون (منى) و (ريهام) ، وهما تحدقان فى (شريف) ، الذى تعلق بإطار الفتحة بيد واحدة ..

كان (شريف) يلهث فى عنف ، وهو معلَّق فى هذا الوضع ، ولكن هتاف (ريهام) جعله يستنفز ما تبقًى من قواه ، ويدفع جسده إلى أعلى ، حتى أمسك الإطار بيده الأخرى ، فصاحت (منى) :

- هيا يا (شريف) .. هيا .. أنت أملنا الوحيد ، بعد اللَّه (سبحانه وتعالى) .. هيا ..

كل ذرة فى كيانه كانت ترتجف ، توترًا وإرهاقًا ، ولكن ما قالته (منى) جعله يدفع جسده أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

« هيا يا (شريف) .. » ..

كل عضلة فى جسده راحت ترتجف ، وعيناه التهبتا بالعرق الغزير الذى يتصبب على جسده كله ، وأنفاسه تلاحقت ، وتسارعت ..

« افعلها يا بطل .. دفعة أخيرة .. هيا .. » ..

والتقط (شريف) نفسًا عميقًا ، ثم دفع جسده تلك الدفعة الأخيرة ، ووثب إلى القمة ..

وهناك ، ألقى جسده أرضًا ، وراح يلهث فى عنف ، غير مصدّق أنه قد فعلها .. أما داخل الصومعة ، فقد غمغمت (منى) وهى تطلق من أعمق أعماق صدرها تنهيدة ملتهبة ، حملت كل ما جاش به صدرها من انفعالات :

- حمدًا للَّه .

وبفرحة تمتزج بشىء من الزهو والتقدير ، هتفت (ريهام) :

- لقد فعلها .. لقد فعلها .

هتف بها الدكتور (أحمد صبرى) من خلفها :

- أسرعوا باللَّه عليكم .. لست أدرى إلى أى عمق وصلت الرصاصة ، فى صدر (قدرى) ، وكل ثانية لها ثمنها .

أعادت إليهما كلماته توترهما ، فهتفت (منى) :

- (شريف) .. أأنت بخير ؟!

لهث ، وهو يعتدل ، قائلاً :

- بالتأكيد .. بالتأكيد .

هتفت به :

- ابحث عندك عن أية وسيلة ، لإخراجنا من هنا .

تلفَّت حوله فى لهفة ، قبل أن يقول فى انفعال :

- يوجد حبل كبير هنا ، ولكننى لا أجد ما يمكننى تثبيته فيه .

صاحت (ريهام) :

- ابحث عن أى شىء باللَّه عليك .. أى شىء .

راح يبحث فى لهفة ، ولكن المكان بدا خاليًا ، إلا من جثتى الحارسين الصريعين ، ومدفعيهما الآليين ، ولم يكن هناك أى بروز فى الجدران أو الأرضية ، يمكن تثبيت أى حبل فيه ، فعاد إلى الفتحة ، قائلاً فى توتر بالغ :

- لايوجد سوى مدفعين آليين .. هل يمكننا أن نستخدمهما معًا ، كدعامة للصعود ، كما فعلنا مع المدفع الأوَّل ؟!

هتف الدكتور (أحمد) فى حدة :

ـ ربما يصلح هذا للبعض ، ولكنه لن يصلح حتمًا لإخراج السيِّد (قدرى) من هنا .. إننى لست أدرى حتى كيف أدخلوه إلى هنا ، فهذا يحتاج إلى ونش صغير .

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تقول :

ـ فليكن .. افعل ما اقترحت يا (شريف) ، وسنصعد إليك ، (ريهام) وأنا .. ثلاثة أفضل من واحد بالتأكيد ؛ لإيجاد حل لهذه الأزمة .

هتف الدكتور (أحمد) :

ـ أسرعى باللّه عليك يا (منى) .. إننى أكاد أموت رعبًا ، من احتمال أن نفقد (قدرى) .

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تقول فى شىء من العصبية ، مع كثير من الحزم :

ـ لن نفقده بإذن اللّه .

أسرع (شريف) يلتقط المدفعين الآليين ، وربطهما ببعضهما فى إحكام ، وعلى نحو معكوس ، بحيث التصقت ماسورة كل منهما بكعب الآخر ، ثم وضعهما عند ركن الفتحة ، وثبتهما جيِّدًا ، قبل أن يلقى الطرف الآخر للحبل داخل الصومعة ، قائلاً فى توتر :

ـ هيا .. أسرعا .

لم تكد الكلمة تتجاوز شفتيه ، حتى ارتفعت طرقات قوية مباغتة على باب المكان ، مع صوت خشن ، يهتف فى توتر :

ـ (زيون) .. أين أنت ؟! لماذا لايعمل هاتفك ؟! الزعيم حاول الاتصال بك أكثر من مرة .

ارتجفت كل ذرة فى كيان (شريف) ، وهبَّ واقفًا ، وهو يتطلَّع إلى الباب فى قلق ، فى حين واصل صاحب الصوت الخشن فى حدة :

ـ إنه غاضب بشدة ، ويريد التحدُّث إليك فورًا .. أين أنت يا (زيون) .. لماذا لاتجيب يا رجل ؟!

استدار (شريف) إلى الفتحة ، وهتف بـ (منى) ، التى تعلّقت بالحبل :

ـ هيا .. أسرعا .. أسرعا .

ولكن صاحب الصوت صاح فى عصبية بالغة :

ـ ماذا حدث بالداخل ؟! كلاً .. لن انتظر أكثر .

امتزجت كلماته بدوى رصاصات مدفعه الآلى ، التى نسفت رتاج الباب ، قبل لحظة من اقتحامه له بمنتهى العنف ، فتراجع (شريف) فى سرعة ، وهو يرفع ذراعيه لحماية وجهه وجسده ، وسمع الروسى يصرخ ، فى مزيج عصبى من الدهشة والغضب والاستنكار :

ـ ماذا حدث هنا ؟!

خفض (شريف) ذراعيه ، وتحرك حركة متوترة ، دون هدف محدود ، فارتفعت فوهة مدفع الرجل نحوه بحركة غريزية ، وارتسم على وجهه مقت وحشى ، وهو يهتف :

ـ أيها الـ ..

ودون حتى أن يكمل عبارته ، ضغط زناد مدفعه ..

واتسعت عينا (شريف) عن آخرهما ، عندما انطلقت الرصاصات كالمطر ..

أو كالدم ..

* * *

منذ بدء عملها معه ، وعلاقتها به ، لم تر (زوشا) (يورى) أكثر توترًا من تلك اللحظات ، وهو يدور فى قبو بناية كبيرة عتيقة ، تطلّ على الميدان الأحمر الشهير فى (موسكو) ، وينفث دخان سيجارته كقطار قديم ، يكاد مخزونه من الفحم ينفد بعد كيلومترات قليلة ..

كان من الواضح أن هناك أمرًا يشغله ويقلقه بشدة ، على نحو يفوق كل المرات الأخرى ..

أمر يحتاج إلى اتخاذ قرار حازم وحاسم ..

وفورى ..

هذا لأنه لم ينبس بحرف واحد ، طوال اثنتى عشرة دقيقة كاملة ، قضاها على هذا النحو ..

ولأنها تعرف طبيعته المتقلبة جيدًا ، وتخشى ردود أفعاله العنيفة دومًا ، فقد لاذت (زوشا) بدورها بالصمت ، واكتفت بمتابعته فى حذر قلق ، حتى توقَّف بغتة ، وألقى سيجارته بعيدًا فى حدة ، وهو يقول :

ـ أين الخرائط ؟!

نطقها بشراسة شديدة ، جعلتها تسرع بالتقاط مجموعة الخرائط ، وتقدِّمها إليه ، فالتقط واحدة منها ، وهو يقول فى مقت :

ـ (مصر) فقط .

تنحنحت (زوشا) ، عندما فرد الخريطة أمامه ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحرِّك سبابته عليها فى سرعة واهتمام ، ثم استجمعت شجاعتها ، وسألته فى حذر ، وبصوت خافت ، وكأنها تخشى أن يسمعها :

ـ ماذا يدور فى ذهنك بالضبط ؟!

قال فى شراسة :

ـ أجرى اتصالك بـ (شلينكو) ، عبر هاتفه الخاص ،

وأخبريه أن الهدف قد تغير ، وعليه أن ينتقل فورًا إلى الهدف الجديد .

قالت فى قلق شديد :

ـ الانتقال بالغ الخطورة الآن يا (يورى) .. من المؤكَّد أن أجهزة الأمن ، فى كل الدول قد ..

قاطعها فى وحشية ثائرة :

ـ هل سمعت ما قلت ؟!

تراجعت فى خوف ، وغمغمت فى توتر :

ـ بالتأكيد .

ثم التقطت هاتفها ، المتصل بالأقمار الصناعية مباشرة ، وهى تسأله :

ـ وما الهدف الجديد ؟!

تألَّقت عيناه ، على نحو جعله أشبه بوحش مفترس ، وهو يجيب :

ـ (القاهرة) .

ارتفع حاجباها بدهشة بالغة ، وهتفت مستنكرة :

ـ العاصمة نفسها ؟!

استدار إليها ، صائحًا :

ـ هل من اعتراض ؟!

زفرت ، قائلة :

ـ كلَّا أيها الزعيم .. إنها خطتك ، وهذا شأنك .

بدأت تضرب أزرار الهاتف بأصابعها فى عصبية ، وهى تتابع :

ـ وماذا لو استوقفه رجال الأمن هناك ؟!

أجابها فى شراسة :

ـ هو يعلم ماذا سيفعل عندئذ .

راحت تواصل ضرب أزرار الهاتف ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها رنين هاتفه هو ، فالتقطه فى سرعة ، قائلاً فى عصبية :

ـ من هناك ؟!

فوجئت بحاجبيه يرتفعان حتى قمة رأسه ، ثم يهويان منعقدين ، وهو يصرخ :

ـ ماذا ؟! مقاتلة حربية ؟! وأين كنتم أنتم يا جنرال القرود ؟! أين كان أمنكم وحرَّاسكم ؟! أنتم أغبى قوم رأيتهم فى حياتى يا (كواليسكى) .. أنتم تستحقون بالفعل انتقالكم المهين ، من قائمة القوى العظمى ، إلى خانة المعوزين .

أنهى الاتصال فى حدة ، واحتقن وجهه بشدة ، فسألته (زوشا) بقلق عارم :

ـ ماذا حدث ؟!

حدَّق فى وجهها لحظة ، وكأنما غاب عقله مع ماسمعه ، قبل أن يندفع قائلاً فجأة ، فى عصبية بالغة :

ـ (أدهم صبرى) سرق مقاتلة حربية ، وينطلق بها نحو (لينينجراد) ..

انتقل ذهوله إليها ، وهى تهتف :

ـ مستحيل ! وكيف فعل هذا ؟!

لم يبد حتى أنه قد سمع تعليقها ، وهو يشعل سيجارته بمنتهى العصبية ، قائلاً فى حدة :

- كيف يمكن أن أعمل ، فى وجود هؤلاء الحمقى ؟! إهمالهم وفسادهم يمنحه فى كل دقيقة فرصة إضافية للتفوّق .

كادت تخبره أنهم المسئولون عن تفشى الفساد والإهمال ، إلا أن عقلها أرشدها ، فى اللحظة المناسبة ، إلى أن الظروف لاتحتمل التعليق بحرف واحد ، فغمغمت :

- قلت إن رجالنا فى انتظاره هناك .

لوّح بذراعه ، ونفث دخان سيجارته فى غضب ، هاتفًا :

- لقد اختصر الوقت بشدة ، وهذا يفسد كل شىء .

ازدردت لعابها ، فى محاولة لتهدئة أعصابها المتوترة ، قبل أن تقول ، محاولة تخفيف عصبيته :

- اختطاف مقاتلة حربية ليس بالأمر السهل أو الهين ، فى أى زمان ومكان ، ومن المؤكد أن المقاتلات الحربية ستنطلق خلفه بلا هوادة .

هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

- لن يوقفه هذا .

هتفت فى حدة :

- إنه ليس أسطورة .

اشتعلت عيناه بلهيب مخيف ، وهو يرمقها بنظرة غضب شرسة ، قبل أن يقول فى حدة :

- هل نفذت ما أمرتك به ؟!

حان دورها ليحتقن وجهها ، وهى تقول :

- سأبلغ أوامرك لـ (شلينكو) فورًا .

وبينما تنقل أوامره لعميلهم فى (مصر) ضغط هو أزرار هاتفه فى توتر ، قائلاً :

- لابد أن يجد ذلك المصرى فى انتظاره مفاجأة .. ومهما فعل .

وضع الهاتف على أذنه ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال بكل صرامة وشراسة الدنيا :

ـ أنا الزعيم .. لايهم لمن أتحدَّث الآن .. ابحثوا عن ذاك الوغد (زيون) فيما بعد ، أما الآن ، فاستمع إلىَّ جيِّدًا ، واعمل على تنفيذ أوامرى فورًا .

أنهت (زوشا) اتصالها ، وتطلَّعت إليه فى قلق متسائل ، وهو يتابع ، بنفس الصرامة والشراسة والحزم :

ـ هؤلاء المصريون ، الذين تحتجزونهم فى الصومعة .

وصمت لحظة ، اشتعلت خلالها عيناه بنيران الجحيم ، وهو يضيف :

ـ اقتلوهم جميعًا .. فورًا .

وسقط الهاتف من يد (زوشا) ..

فقد كانت مفاجأة حقيقية ..

ومذهلة ..

★ ★ ★

لم يفهم ذلك الطيار الروسى أبدًا ، كيف أدرك (أدهم) أن صاروخه ينطلق نحوه !!

ففى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها الصاروخ ، انخفض (أدهم) بطائرته فجأة ، وتركها تهوى دون سيطرة ، فتجاوزها الصاروخ ، وواصل طريقه مبتعدًا ، فى حين استعاد (أدهم) سيطرته على الطائرة مرة أخرى ، وارتفع بها بغتة ، بزاوية شبه رأسية ، جعلت الروسى يغمغم فى عصبية :

ـ رباه ! كيف فعل هذا ؟!

قالها ، وارتفع بطائرته بدوره ، خلف طائرة (أدهم) ، ولكن هذا الأخير انحنى فجأة على نحو شديد الصعوبة ، بحيث صنعت طائرته قوسًا مقلوبًا خلفيًّا ، جعلها تعود إلى الخلف بسرعتها المدهشة ، حتى إن الطيار الروسى لم يستطع تعديل مساره فى الوقت المناسب ، فعبرت طائرة (أدهم) فوقه ، وهى تنطلق فى وضع مقلوب رأسًا على عقب ، بحيث كان بإمكان الروسى رؤية خصمه ، داخل كابينة قيادة طائرته ، قبل أن يتجاوزه ، ثم ينخفض بطائرته مرة أخرى فى سرعة مدهشة ، تحتاج إلى مهارة عالية ، و ...

وقبل أن يستوعب الروسى الأمر ، كان (أدهم) خلفه تمامًا بطائرته ..

وفى عالم المناورات القتالية الجوية ، يكون للطائرة الخلفية أكثر من سبعين فى المائة من السيطرة على الموقف ..

ولأن الطيار الروسى يدرك هذا ، فقد استنفر كل براعته وخبرته وقدراته ، ليفلت من هذا الموقف الدقيق ..

ولكن هيهات ..

صحيح أنه واحد من أفضل قائدى هذا الطراز من الطائرات ، فى (روسيا) كلها ، ولكن خصمه لم يكن رجلاً عاديًا ..

إنه رجل من طراز خاص جدًا ..

رجل المستحيل ..

وفى كل لحظة ، كان الروسى يتوقَّع أن ينطلقِ من طائرة خصمه صاروخًا ، ينسف طائرته هو نسفًا ..

ولكن العجيب أن هذا لم يحدث ..

لقد واصل (أدهم) مطاردته ، والسيطرة على الموقف لدقيقة كاملة ، قبل أن يضغط زناد مدفع طائرته ، مغمغمًا :

- معذرة يا رجل ، ولكن ليس لدى ما يكفى من الوقت لمناورة متقنة طويلة .

ومع قوله ، انطلقت رصاصات مدفع طائرته ..

وأصابت الجناح الأيسر لطائرة الروسى ..

وارتفع عمود من الدخان من طائرة الروسى ، الذى اضطر للانخفاض بها ، تاركًا طائرة (أدهم) خلفه ، وهى تستعيد سرعتها واتجاهها ، نحو (لينينجراد) ، التى أصبحت قريبة للغاية ..

وعبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، هتف الروسى :

- القرصان يواصل طريقه نحو (لينينجراد) .. لقد أجبرنى على الخروج من السباق .

وانعقد حاجباه فى توتر بالغ ، وهو يضيف ، وطائرته تواصل انخفاضها :

- لست أفهم ما فعله .. لست أفهم أبدًا .. لقد كان يسيطر على الموقف تمامًا ، وكان بإمكانه نسف طائرتى بضغطة زر واحدة ، ولكنه ، وبدلاً من هذا ، اكتفى بإصابة دقيقة مدهشة ، تجبرنى على الانسحاب من المعركة فحسب .

وهزَّ رأسه فى قوة مكرِّرًا :

- لن يمكننى أن أفهم هذا أبدًا .

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كانت طائرة (أدهم) تخترق حاجز الصوت(*) ؛ لتواصل انطلاقها نحو (لينتجراد) ..

كان يقاتل ؛ ليبلغ صوامع (جياروف) ، فى الوقت المناسب ، قبل أن يتعرَّض رفاقه للخطر ..

(*) المقصود بالعبارة تجاوز سرعة الصوت ، التى تساوى (٣٤٠سم / ث) ، وفى عالم الطيران تعتبر سرعة الصوت وحدة ، يطلق عليها (ماخ) ، ومن الظواهر التى تصاحب اختراع حاجز الصوت ، حدوث فرقعة عالية مكتومة .

(يورى) سيدرك مغزى ما حدث حتمًا .

وسيغضبه هذا ..

إلى أقصى حد ..

وهذا يضع الموقف كله أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ..

إما أن يحاول نقل رفاقه بأقصى سرعة ، إلى مكان آخر ..

أو يسعى للتخلُّص منه ..

وهو لن يحتمل هذه النتيجة الأخيرة ..

أبدًا ..

لذا ، فعليه أن يسرع ..

ويسرع ..

ويسرع ..

كان يقترب أكثر وأكثر من (لينتجراد) ، بحيث لم

يعد يفصله عنها سوى دقائق معدودة ، عندما رصدته وسائل الدفاع الجوى الروسية ، التى تم إبلاغها بأمره ، فهتف ضابط الرادار فى حزم :

ـ لقد ظهر .

التقى حاجبا رئيسه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يلتقط جهاز الاتصال اللاسلكى ، قائلاً :

ـ الهدف ظهر على شاشة الرادار .. نحن فى انتظار الأوامر .. هل نمنح مقاتلاتنا الحديثة فرصة مطاردته ، والسيطرة عليه ، وإجباره على الهبوط ، أم ..

فوجئ بمحدثه يقاطعه فى عصبية ، قائلاً :

ـ خطأ يارجل .. خطأ .. هنا الجنرال (كواليسكى) .. من المخابرات الروسية .. خصمنا رجل شديد المهارة والعناد ، وأية قوة فى الأرض لن تجبره على الاستسلام .. استخدم صواريخ الدفاع الجوى فورًا يارجل .. هيا .

التقى حاجبا قائد وحدة الدفاع الجوى فى (لينتجراد) ، وهو يقول فى توتر :

ـ ولكن هذا يجعلنا نخسر الطائرة حتمًا .. الأفضل أن ..

قاطعه (كواليسكى) بصيحة هادرة :

ـ الصواريخ يا رجل .

ازداد انعقاد حاجبى قائد الوحدة ، وهو يتمتم :

ـ كما تأمر يا جنرال .

ثم التفت إلى الضابط ، وهو ينهى الاتصال ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ أطلق الصاروخ .

وضع الضابط طائرة (أدهم) فى إحداثيات الهدف إليكترونيًّا ، ثم ضغط زر الإطلاق ..

وانطلق صاروخ الدفاع الجوى خلف طائرة (أدهم) ، وشق طريقه نحوها بسرعة بالغة ..

وهنا لم يكن لبراعة (أدهم) وقدراته أدنى تأثير ؛ إذ إن هذا النوع من الصواريخ يطارد الهدف إليكترونيًّا ، مهما حاور أو ناور ، أو زاد من سرعته ..

ولقد تابع الضابط وقائده حركـة الصـاروخ ، وهـو يقترب من الطائرة ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وقـامت الطـائرة بمنـاورة بارعـة ، فـى محاولـة لتفادى الصاروخ ..

بل مناورة مدهشة ..

وإلى أقصى حد ..

والتقى حاجبا الضابط فى شدة ، وهو يتابع شاشـة الرادار ، وراح رئيسه ينقر بأصابعه على الجدار فـى عصبية ، والصاروخ يطارد الطائرة فى إصرار عنيف ..

كانـت أوّل مـرة يريان فيهـا مناورة مذهلة إلى هذا الحد ، بين طائرة قديمة ، وصاروخ إليكترونى حديث ، يتم توجيهه بالليزر ..

ولكن المناورة والمطاردة انتهيا بغتة ..

ودفعة واحدة ..

فقد لحق الصاروخ بالطائرة ، عند منحنى مـزدوج بينهما ، وارتطم بها ، و ...

ودوى الانفجار الهائل ..

فى سماء (لينجراد) .

* * *

٥ ـ الضربة ..

أشار رجل المخابرات المصرى إلَى خريطة كبيرة ، تكسو جدارًا كاملاً ، من جدران حجرة الاجتماعات الصغيرة ، فى مبنى الأمن القومى ، وهو يقول فى حزم :

ـ هدفنا يُدعى (شلينكو) .. (مالين شلينكو) .. جاسوس سابق عمل لحساب المخابرات السوفيتيه ، فى الفترة من ١٩٧٦م وحتى أوائل ١٩٩٠م ، وأنهى السوفيت خدمته ، بسبب تورُّطه مع عصابات تهريب المخدرات ، وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، بدأ يعمل مع عصابة لترويج المخدرات ، على نحو صريح ، ثم انضمّ ، منذ عام ١٩٩٤م إلى (المافيا) الروسية ، وانقطعت أخباره منذ عامين ، وبعد أن بلغ منزلة كبيرة فيها .

ثم استدار إلى الفريق المحدود ، الذى يستمع إليه ، والذى يتكوَّن من ثلاثة من قيادات الشرطة ، واثنين من رجال المخابرات ؛ ليتابع :

ـ هذا الرجل عبر حدودنا سرًا ، بوسيلة ما ، وكمن هنا ، حتى وصلت شحنة أسطوانات غاز الأعصاب ، التى استأجر (جريكو) لتهريبها ، ثم قتل هذا الأخير ، واستولى على الشحنة ، واختفى بها فى مكان ما هنا .

أجابه أحد قيادات الشرطة فى حسم :

ـ لقد وزعنا صورته ، التى رسمتموها ، بناء على ما أدلى به (ثروت) من أوصاف ، على كل رجالنا ، بطول وعرض (مصر) ، والكل يبحث عنه فى كل مكان .

هزَّ رجل المخابرات رأسه ، قائلاً :

ـ لسنا نعتقد أنه سيحتفظ بهيئته ، التى وزعنا أوصافها ، فالرجل خبير فى التنكر ، بسبب عمله طويلاً فى مجال الجاسوسية ، وهو أيضًا شديد الحذر ، وما دام يعلم أنه هنا من رآه مع (جريكو) ، ومن يمكنه نقل أوصافه للآخرين ، فسينتحل هيئة أخرى حتمًا ، وربما يحمل هوية زائفة أيضًا ، لذا فالأمر أصعب مما نتصوَّر .

قال آخر من قيادات الشرطة فى توتر :

ـ ولكننا لانستطيع مراقبة ومتابعة كل الأجانب فى (مصر) .

أشار رجل المخابرات بسَّبابته ، قائلاً :

ـ علينا أن نجد وسيلة أخرى إذن .

تساءل قائد الشرطة الثالث :

ـ مثل ماذا ؟!

أجابه أحد رجلى المخابرات الآخرين :

ـ ربما لو ربطنا بين الرجل وأسطوانات الغاز ، لأمكننا اختصار الوقت أكثر .

تساءل أحدهم :

ـ ألم نفعل منذ البداية ؟!

اعتدل الرجل ، وقال :

ـ ليس هذا ما أقصده ، وإنما كنت أعنى أننا لانبحث

عن شخص بسيط ، أو عن سائح ضمن فوج سياحى ، يقيم فى أحد الفنادق أو الشقق التى يتم تأجيرها للأجانب ، وإنما نبحث عن رجل يختفى مع شحنة من أسطوانات غاز بالغة الخطورة ، عليه أن يحرِص عليها أشد الحرص ، وأن يسعى لتفجيرها ، عندما يتلقى الأمر بهذا ، و ...

« الأمر !! » ..

هتف رجل المخابرات الرئيسى بالكلمة ، فى لهفة واضحة ، فاستدارت إليه كل العيون فى دهشة متوترة متسائلة ، وهو يتابع فى حماسة :

ـ ربما كانت هذه هى الوسيلة المثلى للتوصُّل إليه .

تساءل أحد قيادات الشرطة فى حذر :

ـ ماذا تعنى بالضبط ؟!

أجابه بنفس الحماسة :

ـ خصمنا ليس قائدًا ، وإنما هو تابع ، لا بد أن يتلقَّى الأوامر من رؤسائه ، لتحديد خطواته وتحركاته ، ومن المؤكد أنه يستخدم واحدًا من الهواتف المحمولة ، التى ترتبط بالأقمار الصناعية مباشرة .

ثم اعتدل ، وتألَّقت عيناه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ وهنا يأتى دور قسم الاعتراض(*) .

تبادل رجال الشرطة نظرة قلقة ، حولّها أحدهم إلى تساؤل (مسموع) ، وهو يقول فى توتر :

ـ وهل يمكن لأجهزة الاعتراض لديكم ، التقاط وتحديد اتصال رقمى ، يتمّ عبر الأقمار الصناعية ؟!

أجابه رجل المخابرات فى حزم :

ـ الوسائل التى أضيفت إليه حديثًا ، تمنحه قدرة معقولة ، فى هذا الشأن ، وربما أمكنها حصر البحث فى نطاق محدود للغاية .

وصمت لحظة ، قبل أن يستدرك :

ـ فور إرسال الهدف أو استقباله ، لأى اتصال ، عبر الأقمار الصناعية .

(★) قسم الاعتراض : هو قسم خاص ، فى جهاز المخابرات العامة ، مهمته ـ وفقًا لاسمه هى اعتراض كل إشارات البث اللاسلكية ، التى تصدر أو تأتى من وإلى (مصر) ولقد أضيفت إليه مؤخرًا وسائل أكثر تطورًا ، تجعله قادرًا على اعتراض الرسائل الرقمية أيضًا .

تبادل الجميع نظرة أخرى ، قبل أن يتساءل أحد رجلى المخابرات ، فى قلق شديد :

ـ وماذا لو أن هذا الاتصال كان إشارة التفجير بالفعل ؟!

انعقد حاجبا رجل المخابرات الرئيسى ، دون أن ينبس ببنت شفة ، أو يجيب ذلك التساؤل بحرف واحد ..

فالاحتمال كان مخيفًا .

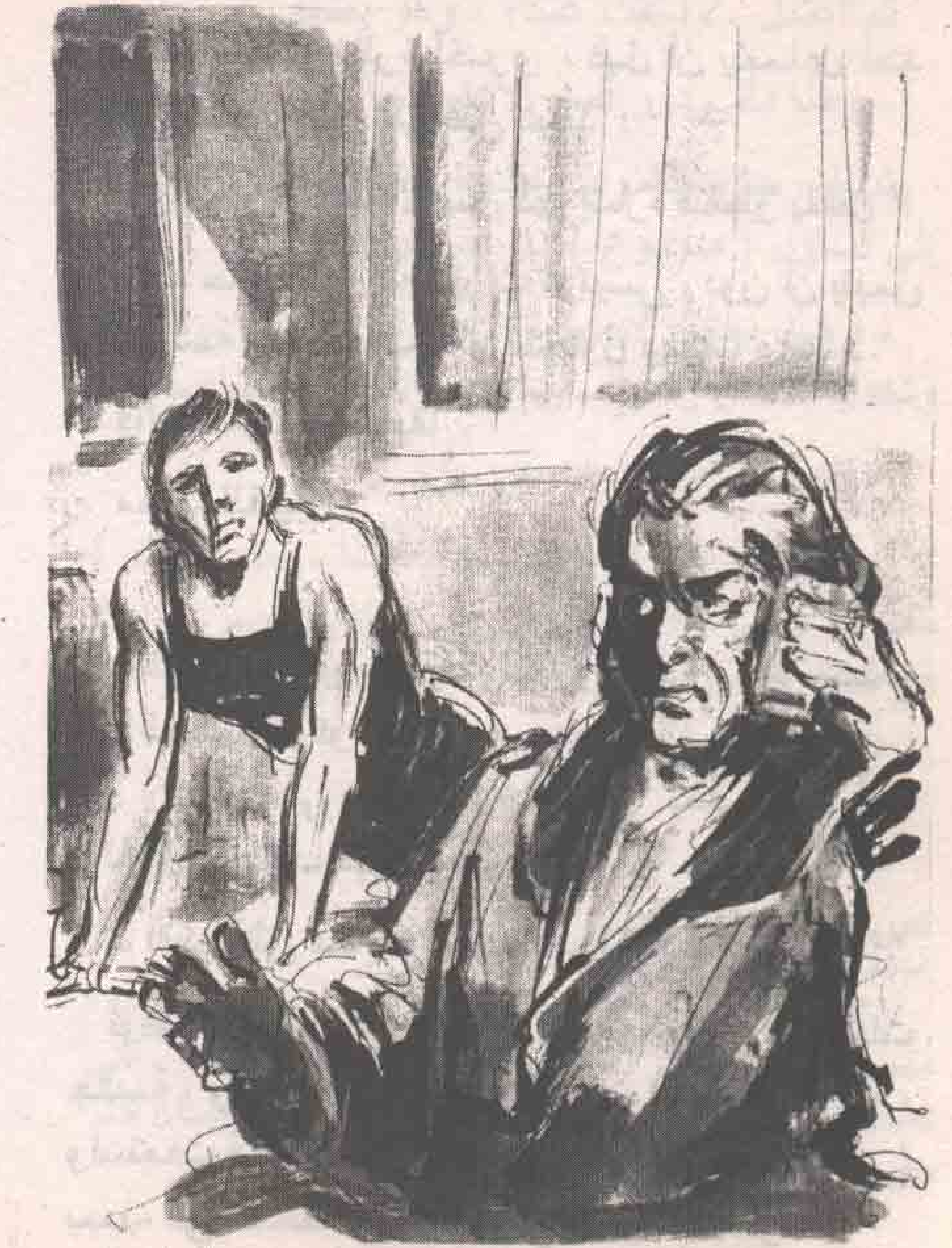
مخيفًا للغاية ..

★ ★ ★

التقى حاجبا (يورى ايفانوفيتش) بشدة ، وهو يستمع إلى الجنرال (كواليسكى) ، عبر هاتفه المحمول ، قبل أن يقول فى صرامة ، حاول أن يخفى بها ذلك الانفعال الجارف فى أعماقه :

ـ أأنت واثق مما تقول هذه المرة يا (كواليسكى) ؟!

توقَّفت (زوشا) عن مزاولة رياضتها العنيفة ، واعتدلت جالسة ، والعرق يغمر جسدها وعضلاتها المفتولة ، واستمعت فى اهتمام قلق ، فى حين كان (كواليسكى) يجيب فى حماسة مزهو ، على الطرف الآخر :



توقفت (زوشا) عن مزاولة رياضتها العنيفة واعتدلت جالسة ، والعرق يغمر جسدها ..

ـ تمام الثقة هذه المرة يا (يورى) .. لقد أطلقنا عليه أحد صواريخ الدفاع الجوى الحديثة ، الموجَّهة باللليزر ، وحاول تفاديه بالفعل ، ولكن الصاروخ أصاب طائرته ، ونسفها فى الجو نسفًا .

سأله (يورى) ، فى صرامة أكثر :

ـ أأنت واثق ؟!

أجابه (كواليسكى) فى انفعال :

ـ لقد تأكَّدت بنفسى ، قبل اتصالى بك يا (يورى)

ازداد انعقاد حاجبى (يورى) ، وكأنما لايصدِّق ما سمعه ، ومرَّت عليه لحظات من الصمت ، جعلت (كواليسكى) يقول فى توتر :

ـ (يورى) .. أمازلت هناك ؟!

أجابه (يورى) فى صرامة :

ـ نعم .. أنا هنا يا (كواليسكى) ، واتساءل عن وسيلة تأكُّدك من خبر كهذا !

قال (كواليسكى) فى سرعة :

ـ رجال الدفاع الجوى شاهدوا ماحدث فى وضوح، على شاشات الرادار، ومناورته للفرار من الصاروخ تعنى أنه ظلّ داخل الطائرة، حتى اللحظة الأخيرة، و ...

قاطعه (يورى) فى صرامة شرسة :

ـ وماذا عن التأكيد البصرى ؟!

صمت (كواليسكى) لحظة، وكأنما لم يتوقّع السؤال، ثم لم يلبث أن اندفع، قائلاً فى انفعال :

ـ مع موقف كهذا، لسنا فى احتياج إلى تأكيد بصرى يا (يورى)، ولا حتى لـ ...

قاطعه (يورى) فى ثورة :

ـ خطأ يا (كواليسكى) .. خطأ أيها الغبى الأحمق .. مع رجل مثل (أدهم صبرى)، أنت بحاجة إلى كل تأكيد ممكن فى الوجود، للتيقّن من أنه قد لقى مصرعه .. هذا ماينبغى أن تتعلّمه من ملفه، ومن تاريخ حياته الحافل .

قال (كواليسكى) فى عصبية، وقد أحنقه الأسلوب الذى يتحدَّث به (يورى) إليه :

ـ نحن واثقون من مصرعه يا (يورى) .

صاح (يورى) :

ـ أما أنا فلا يا جنرال القرود .. احصل على تأكيد بصرى، أو اذهب بمعلوماتك إلى الجحيم .

قالها، وأنهى الاتصال فى عنف، فسألته (زوشا) فى قلق حذر، وهى تنهض وتلتقط منشفتها :

ـ لماذا لاتصدّق مصرعه ؟!

أجابها فى خشونة، وهو يشعل سيجارته فى عصبية :

ـ ملفه يتحدَّث عن عمالقة سقطوا؛ لمجرَّد أنهم افترضوا مصرعه، دون أن يؤيدوا هذا بدليل بصرى .

ثم نفث دخان سيجارته فى قوة، وهو يلتفت إليها، مستطردًا بخشونة أكثر :

ـ ولن أنضمّ إلى هذه القائمة أبدًا .

جفّفت عرقها، وهى تقول :

ـ كل البشر يموتون .

قال فى حدة :

ـ ليس بمجرَّد الافتراض .

تطلَّعت إليه بضع لحظات ، وهو ينفث دخان سيجارته فى عصبية شديدة ، قبل أن تستجمع شجاعتها ، وتقول :

ـ هذا المصرى له تأثير واضح عليك يا (يورى) .

استدار إليها بوجه غاضب محتقن ، وعينين تشتعلان كاللهب ، وهو يهتف :

ـ أى قول سخيف هذا ؟!

واصلت شجاعتها ، وهى تجيبه :

ـ إننى لا أشاهدك عصبيًا إلى هذا الحد ، إلا عندما يتعلَّق الأمر به .

ثم مالت إلى الأمام ، متابعة فى خفوت :

ـ على الرغم من أننى قد تعلَّمت منك قاعدة تقول : إن من يفقد أعصابه أوَّلاً ، يخسر معركته آخرًا .

حدَّق فى وجهها بضع لحظات ، وكأنه يراها لأوَّل مرة ، قبل أن يشيح بوجهه عنها وينفث دخان سيجارته فى عمق وبطء بضع لحظات ، ثم يقول :

ـ ربما كنت على حق .. إننى أشغال عقلى به أكثر مما ينبغى، على الرغم من أن أمامى مهمة أكثر خطورة .

وتألَّقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ مهمته تتعلَّق بالسيطرة على العالم أجمع .

غرق مرة أخرى فى صمت وتفكير عميقين ، التهم خلالهما سيجارتين كاملتين ، قبل أن يعتدل ، ويقول فى صرامة وحشية :

ـ أظنه قد حان الوقت ، لنقدِّم للعالم دليلاً جديدًا على حزم وجدية نوايانا .

سألته فى قلق وحذر :

ـ ألن تعلن مطالبك ؟!

تألَّقت عيناه أكثر ، وهو يجيب فى نشاط وحيوية مباغتين :

ـ فيما بعد يا عزيزتى (زوشا) .. فيما بعد .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة مخيفة ، وهو يضيف :

ـ بعد هذه الضربة مباشرة .

قالها ، وتحوّلت ابتسامته بغتة إلى ضحكة ..

ضحكة عالية مجلجلة ، جعلته يبدو أشبه بوحش دموى ..

وحش آدمى ..

مفترس ..

★ ★ ★

امتقع وجه (شريف) ، حتى بدا أشبه بالموتى ، وفوهة مدفع رجل (المافيا) الروسى يرتفع فى وجهه ، وسبّابته تضغط الزناد ، و ...

ولكن فجأة ، وقبل ثانية واحدة ، من ضغطه الزناد ، وثبت (منى) عبر تلك الفتحة ، التى تقود إلى صومعة الغلال ، وانقضت على الرجل كالعاصفة ..

وفى توتر لامحدود ، أدار الرجل فوهة مدفعه الآلى نحوها ، وهو يصرخ :

ـ أيتها الـ ..

قبل أن يتم صرخته ، وثبت (منى) فى رشاقه ، وركلت أنفه ركلة قوية ، دفعته إلى الخلف فى عنف ، وسبّابته تضغط زناد مدفعه بحركة آلية ، لتنطلق رصاصاته ، وتدوى فى المكان فى عنف ..

وحاول المجرم أن يعتدل ، وأن يستعيد توازنه ، وسيطرته على الموقف ، إلا أن (منى) لكمته فى أنفه الذى حطمته ركلتها بالفعل ، فتصاعدت إلى رأسه آلام رهيبة ، وغامت الدنيا أمام عينيه ، فدارت (منى) حول نفسها ، وركلته ركلة أخرى فى فكه ، ارتطم إثرها بالجدار فى عنف ، ثم سقط على وجهه كالحجر ، فى نفس اللحظة التى وثبت فيها (ريهام) خارج الفتحة ، هاتفة :

ـ هل سيطرت على الموقف ؟!

أجابتها (منى) فى توتر ، وهى تلتقط المدفع الآلى فى سرعة :

- مؤقتًا .. فرصاصاته ستجذب رفاقه حتمًا ، ومن المؤكَّد أن بعضهم قد أدرك ماحدث ، عبر شاشات المراقبة .

هتفت (ريهام) :

- يا إلهى ! هذا يعنى أننا سنحتاج إلى كل قوتنا ، لمواجهة هذا الموقف .

انحنى (شريف) يلتقط المدفعين الآليين ، المعلقين عند ركن الفتحة ، وحلَّ عقدة الحبل المحيط بهما ، وهو يقول فى حزم :

- ولكل شخص أيضًا .

التفتت إليه ، وهو يلقى إليها أحد المدفعين الآليين ، ويمسك الثانى فى قوة ، وقالت فى عصبية :

- أنت خبير كمبيوتر ، ولست مقاتلاً .

هزَّ كتفيه ، قائلاً فى حزم أكثر :

- الضرورات تبيح المخطورات .

التفتت إليهما (منى) قائلة :

- حوار عظيم ، ولكن دعانى أتساءل : هل سنظل هنا ، فى انتظار رد فعل خصومنا ؟!

استدار إليها ، وسألتها (ريهام) :

- ماذا تقترحين ؟!

أجابتها (منى) فى حزم :

- أن نتبع سِياسة (أدهم) ، فى هذا الموقف أيضًا .

هتف (شريف) :

- الهجوم خير وسيلة للدفاع .. أليس كذلك ؟!

أشارت (منى) بمدفعها الآلى ، قائلة :

- بالضبط .

ثم أضافت فى حزم :

- لابد أن نتحرَّك فى سرعة ؛ لنربح عامل المفاجأة ، ومزية المبادرة ، ولندخر كل ثانية يمكن أن نربحها ؛ حتى يمكننا أن نوفر لـ (قدرى) كل ما ..

قاطعتها (ريهام) فى صوت يحمل قدرًا من التوتر والانفعال ، وهى تتطلَّع عبر فرجة الباب :

ـ لا داعى لكل هذا ، لقد بدءوا الهجوم بالفعل .

استدار (شريف) و(منى) فى سرعة إلى حيث تنظر ، وسرت فيهما معًا موجة عنيفة من التوتر ..

فهناك ، ومن نهاية الممر ، الذى يقود إلى حيث يقفون ، كان فريق من رجال (المافيا) الروسية ينقض ، بكل وحشيته وشراسته ..

وأسلحته المتطوِّرة ..

وبدا من الواضح أن المعركة قد بدأت ..

وأنهم مضطرون للقتال فورًا ..

وحتى الموت ..

* * *

« (أدهم) لقى مصرعه ؟! »

هتف (أسعد) بالعبارة فى ارتياع ، وهو يحدِّق فى وجه (سيرجى) ، الذى بدا صارمًا باردًا كعادته ، وهو ينطلق بسيارته ، نحو القيادة العليا للدفاع الجوى الروسى ، فقال هذا الأخير فى حزم :

ـ الخبر لم يتأكَّد بعد .

هتف (أسعد) فى مرارة :

ـ لم يتأكَّد ؟! وكيف يا رجل ؟! ألم تقل بنفسك إن كل الرادارات رصدت انفجار طائرته فى الجو ؟!

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟! المفترض أن تكون معرفتك بـ (أدهم) أكبر وأقوى من معرفتى به ، وأن تكون ثقتك بقدراته أضعاف ثقتنا بها .

قال (أسعد) فى عصبية :

ـ وما شأن القدرات الشخصية هنا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (سيرجى) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إننا نتحدَّث عن (أدهم صبرى) يا رجل .

كرَّر (أسعد) ، فى عصبية أكثر :

- وما شأن قدراته بما حدث ؟!

صمت (سيرجى) لدقيقة كاملة هذه المرة ، قبل أن يقول فى حزم :

- سيجد وسيلة ما .

دغدغت عبارته شيئًا ما ، فى أعماق (أسعد) ، فتمتم فى حذر متوتر :

- هل تعتقد هذا ؟!

مطَّ (سيرجى) شفتيه ، وهو يقول :

- ما اعتدناه هو أن (أدهم) عبقرى فى عالمنا ، ولديه قدرة مدهشة على رصد ما حوله ، وإدراكه ، وإيجاد وسيلة للنجاة منه ، لايمكن أن تخطر على بال سواه ، ثم إن لديه القدرة على السيطرة على أعصابه ، فى أحلك وأصعب الظروف والمواقف ، وهذا يمنحه مزية ، لا تتوفَّر لسواه .

حدَّق فيه (أسعد) بدهشة بالغة ، قبل أن يغمغم :

- يا إلهى ! أيثير (أدهم) إعجابك إلى هذا الحد ؟!

مطَّ (سيرجى) شفتيه ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يلوذ بالصمت بضع لحظات ، حتى أوقف سيارته أمام مبنى قيادة الدفاع الجوى ، فقال فى حزم صارم :

- من الناحية الرسمية ، يعتبر (أدهم) خصمًا لكل جهاز مخابرات فى العالم ، وكل منظمة للجاسوسية أو الإجرام ، ولكن من الناحية الفعلية ، نشعر جميعًا بأنه أستاذ فى مجاله .. عبقرى .. فلتة من فلتات الزمان ، لايمكن أن تحظى الأجيال بمثلها إلا فيما ندر .

غمغم (أسعد) فى انبهار :

- تتحدَّث كما لو أنكما صديقان حميمان ، على الرغم من أنك قد سعيت لتدميره يومًا(*) .

صمت (سيرجى) لحظة أخرى ، ثم قال فى حزم :

- إننا خصمان شريفان على الأقل .

(*) راجع قصة (سم الكوبرا) .. المغامرة رقم (٥١) .

ثم غادر سيارته ، مستطردًا فى صرامة :

ـ والآن هيا .. دعنا نعرف ما حدث .

لم تمض دقائق خمس ، على قوله هذا ، حتى كان قائد الدفاع الجوى المركزى يستقبلهما فى مكتبه ، ويلقى نظرة حذرة على (أسعد) ، قبل أن يقول فى احترام رسمى :

ـ مرحبًا يا كولونيل (كوربوف) .. أوامر سيادة الرئيس تم تنفيذها بمنتهى الدقة .. كل المعلومات الخاصة بحادثة (الميج) المخطوفة تم حجبها عن كل الجهات والأفراد .. الجنرال (جوزيف كواليسكى) حضر بنفسه ، للحصول على المعلومات الخاصة بالرصد البصرى المباشر ، ولكننا أقنعناه بعدم وجود مثلها ، طبقًا لأوامر وتعليمات الرئيس .

غمغم (سيرجى) :

ـ عظيم .. ولكن لديكم شرائط رصد بصرية .. أليس كذلك ؟!

تردَّد الرجل لحظة ، قبل أن يقول :

ـ بلى .. ولكن ..

سأله (سيرجى) فى غلظة :

ـ ولكن ماذا ؟!

تردَّد الرجل مرة أخرى ، ثم قال :

ـ الواقع أن التأكيدات البصرية الوحيدة لدينا ، تم التقاطها بوسيلة بسيطة ، ومن مسافة كبيرة للغاية ، حتى إنه من العسير التأكد مما بها .

اندفع (أسعد) يقول :

ـ فليكن .. دعنا نراها ، وسنحكم بأنفسنا .

أدار القائد عينيه إليه فى شك حذر ، فقال (سيرجى) فى خشونة :

ـ لقد سمعت الرجل .

تردَّد الرجل لحظة ثالثة ، ثم لم يلبث أن شدّ قامته ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ تفضلا .

جمعتهم قاعة عرض خاصـة ، لـم تضـم سـواهم ، وضغط القائد زرًا فىمقعده ، وهو يقول :

ـ يمكنكمـا القـول بأننـا قـد سـجلنا لحظـة الطـائرة الأخيرة .

بدأ العرض على شاشة متوسِّطة الحجم ، وانعقد حاجبا (أسعد) فى توتر بالغ ، وهو يتابع طائرة (أدهم) ، التى يطاردها الصاروخ فى إصرار ، وهى تتاور مـرة ، وثانية ، و ...

ويحدث الانفجار ..

وعضّ (أسـعد) شـفتيه فىمـرارة ، عندمـا شـاهد الصاروخ يرتطم بالطائرة ، التى انفجرت فى عنف ، وتناثرت شظاياها على مساحة واسعة ، و ...

« أوقف العرض .. » ..

هتف (سيرجى) بالعبارة فى صرامة ، وهو يهبّ مـن مقعده بحركة حادة ، فضغط القائد زر الإيقاف بحركـة آليـة سريعة ، ليتوقَّف المشـهد تمـامًا ، ويقتـرب مـن

(سيرجى) فى اهتمام جـارف ، جعل (أسـعد) يهبّ من مقعده بدوره ، متسائلاً فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار إليه (سيرجى) بالصمت ، قبل أن يقول للقـائد فى صرامة :

ـ عد بنا بضع ثوان إلى الخلف .

ضغط القائد زرًا آخر ، فتراجع المشهد إلى الخلف لثانيتين أو ثلاث ، قبـل أن يشير (سيرجى) بيده ، قائلاً :

ـ كفى .

توقَّف المشهد مرة أخرى ، فمال (سيرجى) نحوه أكثر وأكثر ، و(أسعد) يكرِّر فى عصبية :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار (سيرجى) بسبَّابته إلى بقعة صغيرة ، قائلاً :

ـ انظر .

مال (أسعد) برأسه أكثر ، وحدَّق فى البقعة ، التى تحجب إحدى الأشجار العالية الرؤيـة عن معظمها ، والتى بدت له كجزء من شظايا الطائرة المنفجرة ، وتساءل فى توتر :

ـ وما هذا بالضبط ؟!

أشار (سيرجى) إلى القائد ، قائلاً :

ـ إلى الأمام ببطء شديد .

ومع ضغطة زر آخر ، بدأ المشهد يتحركَ إلى الأمام فى بطء ، لتتحركَ معه تلك البقعة الصغيرة ، وتهبط نحو الأرض ، و ...

واتسعت عينا (أسعد) عن آخرهما ، وخفق قلبه فى عنف ..

فما رآه أمامه كان يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

يقلبها تمامًا .

* * *

٦ ـ أمر بالقتل ..

تطلَّع مدير المخابرات العامة المصرية إلى الخريطة الكبيرة لـ (مصر) ، فى حجرة مكتبه ، وهو يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ الأمر خطير للغاية .. فالخبراء يؤكدون أن سارقى الغازات القاتلة سيوجهون ضربة ثالثة ، لتأكيد قوتهم ووحشيتهم ، قبل أن يعلنوا مطالبهم .

مطَّ نائبه شفتيه ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا ؟! مافعلوه حتى الآن حصد آلاف الضحايا الأبرياء ، ومعظمهم من النساء والأطفال والشيوخ ، فلماذا لايعلنون مطالبهم ، حتى تتوقَّف المذبحة ، ونعلم جميعًا ماذا يريدون ؟!

تنهَّد المدير ، قائلاً :

لأنهم يعلمون أن ما سيطلبونه ليس سهلاً أو يمكن

تلبيته ، لذا فهم يبالغون فى وحشيتهم ، حتى تتحطَّم الروح المعنوية للحكومات ، فى كافة أنحاء العالم ، قبل إعلان مطالبهم ، التى ستبدو عندئذ قابلة للتنفيذ .

غمغم النائب فى مقت :

ـ يا للوحشية !

قال المدير فى صرامة :

ـ من الواضح أنهم يتمتعون بالكثير منها .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمِع طرقات على باب مكتبه ، فرفع عينيه إليه ، قائلا :

ـ ادخل .

مع آخر حروف الكلمة ، دلف مدير مكتبه إلى الحجرة ، بوجه شاحب ممتقع ، وهو يقول فى توتر شديد :

ـ الضربة الثالثة وقعت .

امتقع وجه المدير ونائبه ، وهتف الأوّل فى انزعاج مذعور :

ـ أين ؟!

اتجه إليه الرجل بتقرير عاجل ، مع خريطة متوسِّطة للعالم ، حملت ثلاث علامات واضحة ، فى (روسيا) ، و(ألمانيا) ، و(أمريكا) ، وهو يقول :

ـ هنا .

مسح المدير ونائبه الخريطة بعيونهما فى سرعة ، قبل أن يتساءل الأخير :

ـ وماذا عن الخسائر ؟!

ازدرد الرجل لعابه ، على نحو يوحى بأنه يجد صعوبة فى هذا ، قبل أن يجيب بصوت شديد التوتر :

ـ ما يزيد على سبعة آلاف مواطن ، بالإضافة إلى مئات من الحيوانات والطيور .

عضّ المدير شفتيه فى غضب مرير ، فى حين هتف نائبه فى غضب :

ـ يا للوحوش !

وفى توتر مماثل ، استدار المدير إلى مدير مكتبه ، متسائلا :

ـ وماذا عنا ؟!

هزَّ الرجل رأسه ، مجيبًا :

ـ لم تصلنا أية معلومات بعد .

مع آخر حروف كلماته ، اندفع رئيس قسم الاعتراض إلى المكان ، بوجه شاحب ممتقع ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيادة المدير ، ولكن الأمر ..

قاطعه المدير ، وهو يشير إليه ، متسائلاً فى قلق شديد :

ـ لا بأس يا رجل .. ماذا لديك ؟!

اتجه الرجل إليه مباشرة ، وهو يحمل ورقة ، قائلاً :

ـ لقد اعترضنا اتصالاً لاسلكيًا رقميًا ، تم عبر الأقمار الصناعية ، باللغة الروسية ..

سأله المدير فى قلق أكثر :

ـ وما محتوى ذلك الاتصال ؟!

التقط الرجل نفسًا عميقًا ، قبل أن يرتجف صوته فى انفعال ، وهو يقول :

ـ إشارة لتنفيذ العملية .. فورًا .

واتسعت عيون المدير ونائبه ..

إلى أقصى حد ..

* * *

أكثر من دسته من القتلة المحترفين ، بمدافعهم الآلية القوية ، انقضوا على تلك الحجرة ، التى تحوى فتحة صومعة الغلال ، والتى يتحصن داخلها (شريف) و(ريهام) و(منى) ، بثلاثة مدافع آلية فحسب ..

وعلى الرغم من أن كل شيء كان يوحى بانعدام التكافؤ ، فى معركة كهذه ، إلا أن (منى) هتفت فى حزم :

ـ هيا ..

ومع أول حرف من هتافها ، فتح (شريف) و(ريهام) رصاص مدفعيهما ..

وانطلقت النيران ..

من الجانبين ..

ثلاثة مدافع آلية ، فى مواجهة دستة كاملة ..

فيض منَ الرصاصات بلا حدود ..

دوى يصمّ الأذان ، على نحو جعل الدكتور (أحمد) يهتف فى ارتياع :

- رباه .. ماذا يحدث هناك ؟! ماذا يحدث ؟!

وعلى الجانبين ، تفجَّرت الدماء فى غزارة ..

ثلاثة من قتلة (المافيا) الروسية سقطوا صرعى ، وأربعة آخرون أصابتهم الرصاصات فى عنف ..

(ريهام) اخترقت كتفها رصاصة ، و(شريف) شعر بآلام رهيبة فى ساقه ، جعلته يسقط مرغمًا على ركبتيه ، فى حين واصلت (منى) إطلاق رصاصاتها فى استماتة ، على الرغم من إصابة ذراعها ، والرصاصات التى تتطاير حولها من كل صوب ..

وفى مرارة ، هتفت (ريهام) :

- يا للسخافة ! لقد نفذت خزانة مدفعى ..

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تهتف بـ (شريف) ، وسبَّابتها مازالت تعتصر زناد مدفعها الآلى :

- أعطها مدفعك .

ألقى (شريف) مدفعه إلى (ريهام) فى يأس ، وهو يغمغم :

- لا فائدة .. إنهم يفوقوننا عددًا وعدة .. لا فائدة .

صرخت فيه (منى) :

- اصمت .. لا تقل هذا .. لا تقل هذا أبدًا .

عضت (ريهام) شفتيها ، وهى تطلق آخر رصاصات مدفعها ، وشعرت برصاصة أخرى تخترق فخذها ، فانطلقت من صدرها آهة غضب ومرارة وألم ، ورأت الدماء تتفجَّر من عنق (منى) ، وجسد هذه الأخيرة يرتدّ إلى الخلف فى عنف ، ويرتطم بالجدار ، فصرخت :

ـ لا .. ليس بهذه الوسيلة .

امتزجت صرختها بضحكة وحشية ، أطلقها قائد مجموعة القتلة ، وهو يهتف برجاله ، أو بمن تبقَّى منهم :

ـ انتصرنا يا رجال .. خطوة أخرى ، ونحصدهم جميعًا بلا رحمة أو هوادة .

شعرت (ريهام) باليأس والمرارة والإحباط ، وهى تلقى مدفعها ، بعد أن نفدت خزانته ، وتندفع محاولة التقاط مدفع (منى) ، التى سقطت على وجهها أرضًا ، وقد راودها شعور بأنه لم يعد هناك أمل فى النجاة من هذه المصيدة الرهيبة ..

أدنى أمل ..

ولكن فجأة ، سمعت صوتًا مألوفًا غاضبًا ، يقول فى صرامة شديدة ، وحزم بلا حدود :

ـ المهم أن تجد الوقتِ ، لتخطو تلك الخطوة أيها الوغد .

شهقت (ريهام) فى فرحة غامرة ، واتّسعت عينا (شريف) عن آخرهما ، فى حين رفعت (منى) رأسها عن الأرض ، وغمغمت فى لهفة متهالكة :

ـ (أدهم) .. يا إلهى ! (أدهم) .

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها كلماتها ، كان قتلة (المافيا) الروسية الخمسة يستديرون ، فى آن واحد ، لمواجهة (أدهم) ، وفوهات مدافعهم ترتفع نحوه ، و ...

وكان أعنف إعصار واجهوه ، فى حياتهم كلها ..

إعصار غاضب ثائر ، وصل فى الوقت المناسب ، لينقذ أقرب وأحب الناس إليه ، فى الكون كله ، قبل أن تحصدهم يد الشر بلا رحمة ..

فمع استدارة الرجال الخمسة ، شعر أحدهم بقنبلة تفجَّرت فى أنفه ، قبل أن ينتزع أحدهم مدفعه الآلى فى عنف ، ثم يهوى به على رأس الثانى ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها قدمه ، لتركل الثالث فى فكه ..

وانطلقت رصاصات الرجلين الآخرين نحو (أدهم)، ولكن هذا الأخير تحرَّك بسرعة مذهلة، قبل حتى أن تنطلق الرصاصات، ووثب إلى أعلى، وتعلق بقائم فى السقف، ليركل الرجلين فى وجهيهما، ثم يفلت يديه، ويدور حول نفسه فى الهواء، ليهبط على قدميه، وتتحرك قبضتاه فى آن واحد، لحسم المعركة، وإسقاط كل من يقف على قدميه من حوله ..

وفى ارتياع، حدَّق المصابون فيما حدث، وهتف أحدهم :

- الرحمة .

لم يلتفت (أدهم) إليه، وهو يندفع نحو الحجرة، التى تضمّ رفاقه، بكل لهفة الدنيا ..

وفى توتر بلغ مداه، انعقد حاجباه، وهو يحدق فى (منى)، الملقاه أرضًا، وهتف :

- رباه ! أهى ؟!

قبل أن يتمّ هتافه، رفعت (منى) عينيها إليه، وابتسمت فى ضعف، مغمغمة :

- أنا بخير يا (أدهم) .

خُيِّل لـ (شريف) و(ريهام) أنه لم يشعر حتى بوجودهما، وهو يندفع نحو (منى)، ويحتويها بين ذراعيه فى حنان جارف، ويتحسَّس جرح عنقها بأصابعه، هامسًا :

- أنت تحتاجين إلى إسعاف عاجل .

ابتسمت بكل حب الدنيا، متمتمة :

- إنه مجرَّد جرح سطحى .

غمغمت (ريهام)، وكأنما أحنقها ألا يشعر بهما (أدهم) :

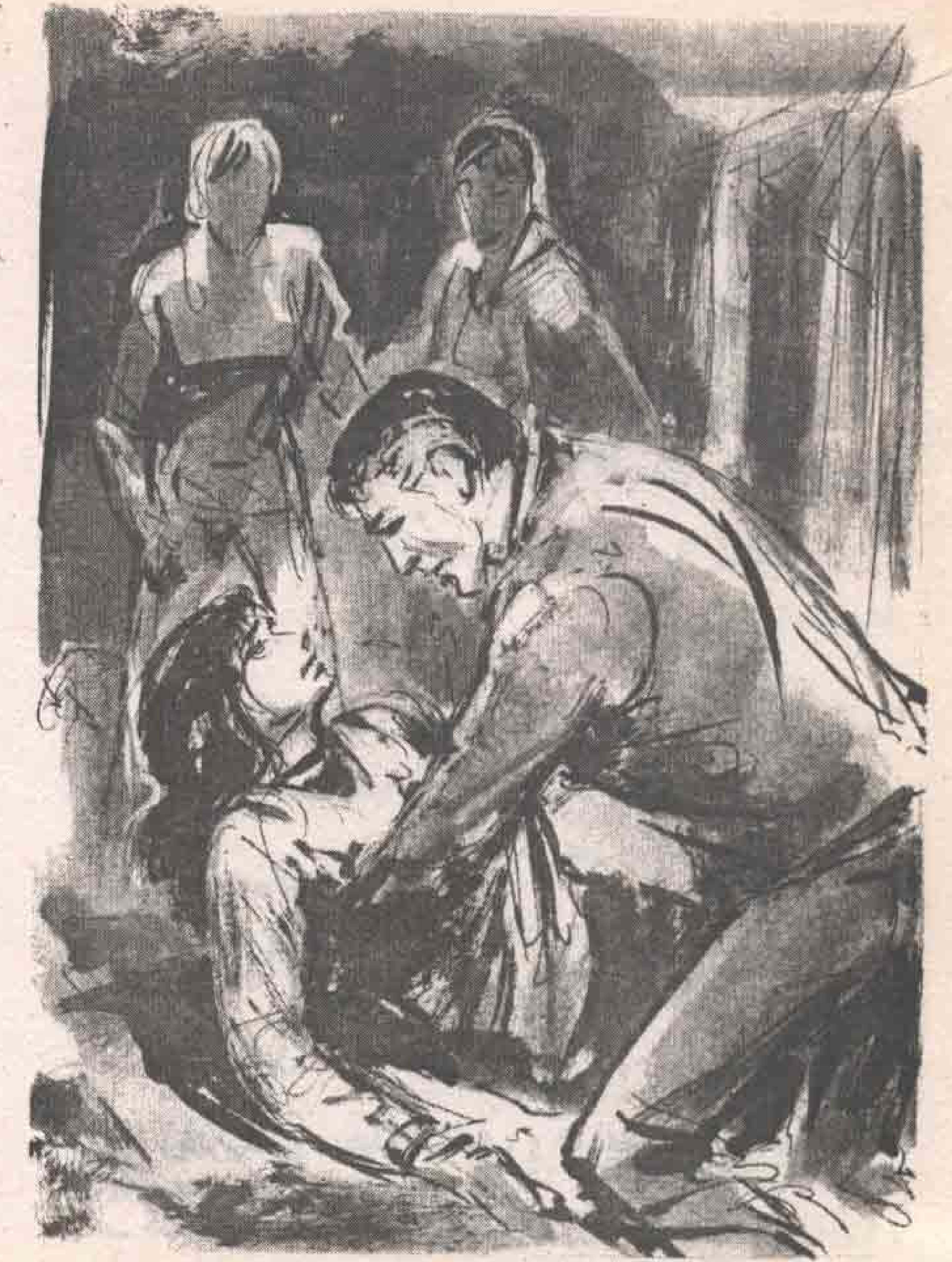
- كلنا مصابون .

التفت إليها (أدهم)، وهو يتساءل فى اهتمام :

- أأنتم بخير ؟!

بدا (شريف) سعيدًا للغاية، وهو يجيب فى حماسة :

- كنا نعلم أنك ستأتى .. كنا واثقين من هذا .



خُيِّل لـ (شريف) و (ريهام) أنه لم يشعر حتى بوجودهما ، وهو يندفع نحو (منى) ..

أما (ريهام) ، فقالت فى تِوتر :

ـ ولكن السيِّد (قدرى) مصاب ، ويحتاج إلى إسعاف عاجل .

التقى حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يردد :

ـ يا إلهى ! أين هو ؟! وأين (أحمد) ؟!

أشارت (منى) بيدها ، قائلة :

ـ هناك .. فى قاع تلك الصومعة .

اندفع يلقى نظرة داخل الصومعة ، وما إن رآه الدكتور (أحمد) ، حتى هتف فى لهفة تمتزج بالارتياح :

ـ (أدهم) .. حمدًا لله .. حمدًا لله .

أشار (أدهم) إلى (قدرى) ، وهو يسأل شقيقه فى قلق بالغ :

ـ ماذا أصابه ؟!

أجابه (أحمد) فى عصبية :

- رصاصة فى الصدر .. لابد أن نجد وسيلة لإخراجه من هنا بأقصى سرعة .. إنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدينا ، لو لم نربح كل دقيقة ممكنة .

ازداد انعقاد حاجبى (أدهم) ، وهو يعتصر ذهنه ، قائلاً فى حزم :

- سنجد وسيلة ما يا (أحمد) .. سنجد وسيلة ما بإذن الله (سبحانه وتعالى) ، وعنايته .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (يورى إيفانوفيتش) يمسك هاتفه المحمول فى قوة ، قائلاً ، وهو يسيطر على أعصابه بكل طاقته :

- إذن فقد فعلها ذلك المصرى .. كنت واثقًا من أنه لم يلق مصرعه .. كنت واثقًا تمام الثقة .

ثم التقى حاجباه فى شدة ، وهو يسأل محدّثه :

- هل أعددتم ما أمرتكم به ؟!

كان من الواضح أن محدّثه قد أجابه بالإيجاب ، فقد

نفث دخان سيجارته فى قوة وعصبية ، قبل أن يقول فى وحشية :

- نفذ إذن .. لا أريد أن تتبقّى ذرة واحدة منهم .. هل تفهم ؟!

التقى حاجبا (زوشا) فى شدة ، وهى تتساءل عما يعنيه بقوله هذا ، فى حين أنهى هو الاتصال ، وتراجع فى مقعده ، وانفعال جارف يعصف بكل ذرة من كيانه ، وعقله يتساءل فى عصبية غاضبة ..

كيف أفلت (أدهم) من الموت هذه المرة ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

* * *

« لقد أطلق مقعد الطائرة .. »

نطق (سيرجى كوربوف) العبارة ، وهو يشير إلى جزء تم تحسينه وتكبيره من شريط المراقبة البصرية ، ثم تراجع متابعًا ، والفيلم يتواصل على الشاشة متوسّطة الحجم :

ـ فى اللحظة الأخيرة ، وبمهارة مذهلة كعادته ، جذب تلك الذراع الاحتياطيه الصغيرة ، الملصقة بمقعد القيادة ، والمسئولة عن إطلاق المقعد براكبه خارج الطائرة ، كإجراء احتياطى ، وهذا ما يفعله أى طيار محترف ، فى ظروف مماثلة ، ولكن العبقرية هنا تكمن فى أنه قد فعل هذا فى اللحظة الأخيرة ، بحيث يضيع مرآه وسط الانفجار ، ثم لم يفتح مظلة المقعد ، إلا فى اللحظة الأخيرة أيضًا ، وبعد أن أخفته قمم الأشجار العالية عن عيون أى مراقبين محتملين ، على الرغم مما فى هذا من صعوبة وخطورة ..

ثم هزَّ رأسه ، قبل أن يضيف :

ـ عبقرى ومذهل كعادته .

ابتسم (أسعد) فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ المهم أنه على قيد الحياة .

التفت إليه (سيرجى) ، قائلاً فى صرامة :

ـ مؤقتًا .

انعقد حاجبا (أسعد) ، فى حذر حائر ، فتابع (سيرجى) بنفس الصرامة :

ـ وفقًا لما نراه ، فقد هبط (أدهم) على مشارف (لينينجراد) ، وكل ما سبق هذا من أحداث يؤكد أنه يسعى إلى صوامع (جياروف) للغلال ، وهى منطقة تقع تحت حماية (المافيا) الروسية ، ثم إن زعيمهم الجديد (يورى) رجل ذكى أكثر مما ينبغى ، وسيدرك حتمًا هدف (أدهم) ، الذى يسعى خلف رفاقه ؛ فى محاولة لإنقاذهم ، ولن يسمح له (يورى) بهذا أبدًا .

قال (أسعد) فى توتر :

ـ ومادمت تعلم هذا ، وتعلم أيضًا أن (أدهم) برىء من محاولة اغتيالك ، فلماذا لاتتحرَّك فى سرعة ؛ لإنقاذه من كل هذا ؟!

التقى حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول :

ـ لأننى الوحيد ، الذى يؤمن بهذا .

بدت الدهشة على وجه (أسعد) وصوته ، وهو يغمغم :

ـ وكيف هذا ؟! ألم يقل قائد الدفاع الجوى : إن الرئيس نفسه قد ..

قاطعه (سيرجى) ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ الرئيس يتحرك وفقًا لخطة كبرى ، لكشف الخيانة ، وسط صفوف المخابرات الروسية ؛ لأننا نثق بأن عملية سرقة غاز الأعصاب القاتل ، لم تكن لتتم بنجاح ، دون تورُّط بعض القيادات الداخلية فيها ، ومصرع الجنرال (فاسيلوف) يؤيِّد هذه النظرية .

قال (أسعد) فى عصبية :

ـ إذن فكل هذا من أجل عملية غاز الأعصاب ، وليس من أجل (أدهم) ؟!

أومأ (سيرجى) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. حتى متابعة عملية اختطاف (الميج) ، تمت بكل هذا الاهتمام وهذه السرية ؛ لأننى أوهمتهم أنها تتعلق بعملية غاز الأعصاب ، وليس بـ (أدهم) .

سأله (أسعد) ، وقد بلغت حيرته ذروتها :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا تفعل كل هذا من أجل (أدهم) ؟!

أجابه (سيرجى) فى صرامة :

ـ لست أفعل هذا من أجل (أدهم) .

ثم شدّ قامته ، مستطردًا فى حزم :

ـ إننى أفعله من أجل (روسيا) ..

سأله (أسعد) فى عصبية :

ـ وكيف هذا ؟!

مطَّ (سيرجى) شفتيه ، وبدا مترددًا بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

ـ لقد استشرى الفساد بيننا يا رجل ، حتى لم يعد هناك من يمكننى أن أثق به ؟ لمواجهة عملية غاز الأعصاب ، دون أن أكشف ، فى لحظة الذروة ، أنه يعمل فعليًا لحساب (المافيا) .

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع :

ـ رجل واحد ، كان يمكننى أن أمنحه ثقتى ، وأن

أسعى إليه ؛ لنعمل جنبًا إلى جنب ، فى مواجهة هذه الكارثة العالمية .

غمغم (أسعد) فى انفعال :

ـ (أدهم) ؟!

استدار إليه (سيرجى) ، مجيبًا فى صرامة :

ـ بالتأكيد .

ثم عاد بصره يشرد ، وهو يضيف :

ـ المهم أن يبقى على قيد الحياة ، حتى أصل إليه .

والتقى حاجبا (أسعد) فى شدة ..

فبالفعل ، كان هذا هو المهم ..

جدًا ..

* * *

أحكم (أدهم) رباط الحبل السميك ، الذى أحاط به جسد (قدرى) الضخم ، ليثبته فى الباب الكبير ، الذى انتزعه

من الحجرة ، وأرقد عليه صديق عمره ، قبل أن يقول لشقيقه فى حزم :

ـ سأستخدم سيارة هؤلاء القتلة ؛ لأرفع جسد (قدرى) من هنا .. كل ما عليك هو أن تتابع عملية انتشاله ، حتى يبلغ السطح ، وبعدها سننقله بالسيارة إلى أقرب مستشفى ، فالكل هنا يحتاج إلى إسعاف عاجل .

غمغم الدكتور (أحمد) :

ـ بالتأكيد .

ثم تطلَّع إليه بقلق بالغ ، مضيفًا :

ـ أنت أيضًا بحاجة إلى فحص شامل ، حتى لايفاجئك انهيار جسدك ، فى ظروف أكثر صعوبة من هذه ، ما دامت المعركة لم تتوقَّف بعد .

أجابه (أدهم) فى حزم ، وهو يثب متعلِّقًا بالحبل ، الذى ثبته فى سيارة القتلة (الجيب) :

ـ لاوقت لهذا يا شقيقى العزيز ، فالمعركة الحقيقية لم تبدأ بعد .

اتسعت عينا (أحمد)، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ لم تبدأ بعد ؟! ماذا تعنى يا (أدهم) ؟!! ماذا تعنى ؟!

لم يجب (أدهم)، وهو يتسلّق الحبل فى خفة ونشاط، حتى بلغ الحجرة العلوية، حيث جلس (شريف) و(ريهام) و(منى)، والدماء مازالت تنزف من جروحهم، على الرغم من الضمادات البدائية التى أحاطوها بها، فتطلّع إليهم لحظة، فى توتر مشوب بالقلق، قبل أن يقول :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

قالها، ثم انطلق إلى السيارة ذات الدفع الرباعى، التى تقف أمام المبنى، وتأكّد من أن الحبل مثبت بها جيّدًا، قبل أن يثب إلى مقعد قيادتها، ويدير محركها، ثم يتحرّك بها إلى الأمام فى بطء ..

وهناك، داخل الصومعة، بدأ جسد قدرى الضخم يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

وغمغم الدكتور (أحمد) فى ارتياح :

ـ حمدًا للّه .. حمدًا للّه مازال هناك أمل .. حمدًا للّه .

وفى الحجرة العلوية، تابعت (منى) ارتفاع جسد (قدرى)، على الرغم من جراحها، والدماء التى تغرق عنقها وصدرها وذراعها، وراحت تهتف فى حماسة :

ـ هيا يا (أدهم) .. هيا .. متر آخر، ويصبح (قدرى) هنا .. هيا .

لم يكن (أدهم) بحاجة لهتافها، وهو يتحرّك إلى الأمام فى بطء وحذر أكثر، حتى سمع (منى) تهتف فى سعادة :

ـ إنه هنا .

كان الحبل مثبتًا فى قائم خشبى قوى، فى سقف الحجرة، لذا فقد تعاونت (ريهام) مع (منى)، لدفع الباب، الذى استقرّ فوقه جسد (قدرى)، الذى تغرق الدماء صدره، حتى أصبح فوق الأرضية، فهتفت (منى) بكل قوتها :

- إنه هنا يا (أدهم) .. إنه هنا .

التقطت أذنا (أدهم) هتافها ، فأغلق عينيه فى ارتياح ، قبل أن يغمغم :

- تماسك يا (قدرى) .. تماسك يا صديقى العزيز .. لاتتعجّل بالرحيل ، بعد كل ما نبذله من أجلك .. ابق معنا باللّه عليك يا صديقى .. ابق معنا .

قالها ، وأفرغ لواذع قلبه كلها فى تنهيدة ملتهبة ، قبل أن يغادر السيارة ، ويحاول أن يبتسم ، متابعًا :

- حانت لحظة الخروج من هنا ، والأفضل أن ..

قبل أن تكتمل عبارته ، انطلق دوى رصاصة فجأة ، ورآها (أدهم) تخترق زجاج السيارة ، فألقى نفسه أرضًا ، وهو يهتف :

- رباه ! هناك المزيد منهم .

لم تكد عبارته تكتمل ، حتى انهالت الرصاصات

على السيارة كالمطر ، فى نفس اللحظة التى اشتعلت فيها النيران فجأة ، فى دائرة واسعة ، تحيط بالصومعة ..

وبسرعة مدهشة ، وعلى نحو يوحى بأن كل شىء معدّ مسبقًا ، انتشرت دائرة النيران ، وراحت تلتهم كل شىء فى طريقها ، وهى تتجه نحو الصومعة من كل صوب ..

ومن موقعها ، صرخت (ريهام) :

- يا إلهى ! ما هذا ؟! ما هذا ؟!

أما (منى) فقد اتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تحدّق فى النيران ، التى شقت طريقها فى سرعة ، حتى بلغت سيارة الدفع الرباعى ، التى يختفى خلفها (أدهم) ، فى نفس الوقت الذى واصلت فيه الرصاصات انهمارها فى عنف وغزارة ، وكأنما الغرض الرئيسى منها هو ألا تمنحه فرصة للخروج من مكمنه ، حتى تبلغه النيران ، وتلتهمه مع السيارة التهامًا ..

وأمام عينيها المذعورتين ، اشتعلت النيران فى السيارة بالفعل ..

وبات من الواضح أن الفخ محكم هذه المرة ..

وأنه لاتوجد وسيلة واحدة للفرار منه ..

على الإطلاق ..

* * *

٧ ـ بلا أمـل ..

« نفذ المهمة ، فور بلوغ الهدف ..»

نطق رئيس قسم الاعتراض العبارة ، قبل أن يلتفت إلى رجال المخابرات ، وعدد من قيادات الشرطة ، متابعًا :

ـ اتصال قصير ، ولكنه يحمل المعنى المنشود ، والأمر المباشر ، من قيادة ما فى (روسيا) ، أو فى أى مكان آخر من العالم ، فهذا ما تعجز أجهزتنا الرقمية الحديثة عن تحديده ، ولكن جهة الاستقبال هنا ، فى مكان ما داخل حدودنا يعمل قسم الاعتراض الآن على تحديد إحداثياتها بدقة أكبر .

لوّح أحد قيادات الشرطة بيده ، قائلاً فى توتر :

ـ المشكلة هى أننا لانعلم ما الهدف ، ولاحتى ما المهمة المطلوب تنفيذها ، والأخطر أننا لانعلم متى يتم هذا .

أجابه آخر من قيادات الشرطة :

ـ المهمة ، كما يمكن الاستنتاج بسهولة ، هى تفجير عدد من أسطوانات غاز الأعصاب ، فى مكان ما هنا ، وهذا المكان هو ما حمل اسم (الهدف) ، ومهمتنا الآن هى أن نسعى لتحديده .

أضاف أحد رجال المخابرات فى حزم :

ـ وبأسرع وسيلة ممكنة .

تراجع أحد رجال المخابرات الآخرين فى مقعده ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وكأنما يدرس عقله فكرة ما ، فى حين قال قائد الشرطة الأوّل ، وقد حملت لهجته شيئًا من العصبية :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا بالفعل ، ولكن الوقت يمضى بأسرع مما يمكننا التحكم فى الأمر .

اعتدل رجل المخابرات ، الذى ظلّ صامتًا منذ البداية ، وقال فى حزم :

ـ فلنوقف الوقت إذن .

التفت إليه الجميع فى دهشة متسائلة ، وسأله أحد زملائه فى حيرة :

ـ وكيف يمكن لأى مخلوق ، مهما بلغت قوته ، أن يوقف الزمن ؟!

بدا الرجل مفعمًا بالحماسة ، وهو يجيب :

ـ إنه مصطلح مجازى ، ولكن المقصود به هو كسر المعادلة ، التى حملها ذلك الأمر الوحشى ، عبر اتصال الأقمار الصناعية .

انتقل الاهتمام إليهم ، وأحد قيادات الشرطة يسأله :

ـ أيمكنك أن تفسّر أكثر ؟!

نهض رجل المخابرات من مقعده ، وبدأ يتحرّك فى المكان فى حماسة ، وهو يقول :

ـ العبارة التى التقطتها أجهزة الاعتراض الرقمية الحديثة واضحة للغاية .. «نفذ المهمة ، فور بلوغ الهدف» .. عبارة شرطية مباشرة ، لابد أن يبلغ فيها شخص ما ، أو فريق ما منطقة تم الاصطلاح على تسميتها بالهدف ، ليتم تنفيذ المهمة .

والتقط نفسًا عميقًا ، مع اعتداله لمواجهة العيون التى تتابعه فى اهتمام ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ مهمتنا إذن أن نمنع عملية بلوغ الهدف ؛ حتى لا يتمّ تنفيذ المهمة .

تساءل أحد قيادات الشرطة ، فى اهتمام بالغ :

ـ وكيف يمكننا أن نفعل هذا ؟!

أشار إليه رجل المخابرات ، قائلاً :

ـ إنها مهمتكم .

تساءل الرجل فى دهشة :

ـ مهمتنا نحن ؟! أتقصد جهاز الشرطة ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بالطبع .. الاتصال يؤكّد أن شحنة أسطوانات الغاز تتحرّك الآن ، لبلوغ الهدف ، وشحنة كهذه لن يتم نقلها على أكتاف الرجال ، وإنما بوساطة سيارة من سيارات نصف النقل ، أو حتى داخل سيارة أو عدة

سيارات عادية .. وهذا يعنى ، فى كل الأحوال ، أن النقل يتم عبر طرق رئيسية ، أو حتى فرعية .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ فلنغلق كل الطرق إذن .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة ، وهتف به أحد قيادات الشرطة فى حدة :

ـ هل تتحدَّث جادًا يا رجل ، أم أنها أكثر الدعابات سماجة ، فى الدنيا كلها ؟! هل تدرك ما الذى يمكن أن يفعله إنغلاق جميع الطرق فى (مصر) كلها ؟!

التقى حاجبا رجل المخابرات ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ نعم .. سينقذ حياة الآلاف ، الذين يمكن أن يحصدهم الغاز القاتل فى دقائق معدودة ، وسيمنع انفجار حالة من الذعر والهلع ، تعجز معها أية قوة فى الأرض ، عن السيطرة على الموقف ، وستغلق معها كل الطرق ، فى طول البلاد وعرضها ، إجباريًّا هذه المرة .

تراجع قائد الشرطة ، وتبادل نظرة متوترة مع رفاقه ، قبل أن يغمغم ، فى لهجة توحى باقتناعه بالأمر ، على الرغم من صعوبته وخطورته :

ـ إجراء كهذا يحتاج إلى موافقة سيادة وزير الداخلية شخصيًا .

أشار رجل المخابرات بيده ، قائلاً :

ـ لاتجعل هذ يقلقك ، سأبلغ سيادة المدير ، ليقوم باتصاله به فورًا ؛ لاتخاذ كل الإجراءات الواجبة .

تبادل رجال الشرطة النظرات مرة أخرى ، قبل أن يتساءل آخر فى اهتمام :

ـ وكم سيستغرق هذا فى رأيك ؟!

استدار رجل المخابرات إلى رئيس قسم الاعتراض بنظرة متسائلة ، فتنحنح هذا الأخير ،، قبل أن يجيب :

ـ الرجال يحتاجون إلى ساعة واحدة على الأكثر ؛ لتحديد موقع وإحداثيات الاستقبال .

تساءل رجل الشرطة :

ـ وبعدها ؟!

أجابه رجل المخابرات هذه المرة ، قائلاً :

ـ بعدها ستقتصر عملية إغلاق الطرق على المسارات الأساسية والفرعية ، التى تمتدّ من البقعة ، التى تم عندها استقبال الاتصال .

اندفع رجل الشرطة الثالث ، يقول :

ـ وماذا لو تغيَّرت الأوامر ؟!

استدار إليه الكل فى اهتمام متسائل ، فأضاف فى قلق واضح :

ـ ماذا لو شعر (شلينكو) هذا بإغلاق الطرق ، وأبلغ قائده فى (روسيا) ، فغيَّر هذا الأخير ، الذى تصفونه بالذكاء والوحشية أوامره ، وطلب منه إطلاق الغاز حيثما يتواجد ؟!

وتفجرَّت موجة عنيفة من التوتر فى المكان ..

وأطلّ قلق عارم من كل الوجوه ..

وكل العيون ..

فالاحتمال ، الذى طرحه قيادى الشرطة ، كان خطيرًا ومخيفًا ..

وممكنًا ..

إلى درجة رهيبة ..

★ ★ ★

تراجع الجنرال (جوزيف كواليسكى) فى مقعده ، داخل حجرة مكتبه الواسعة ، فى مبنى المخابرات الروسية ، وتطلَّع بضع لحظات إلى مبنى (الكريملين) ، الذى تطلّ عليه نافذة حجرته مباشرة ، وبدت عليه علامات التفكير بعض الوقت ، قبل أن يلتفت إلى زميله (بافلوف) ، قائلاً :

ـ إذن فقد أخرج الكولونيل (كوربوف) مسئول المخابرات المصرى (أسعد) من زنزانته ، ولم يكتف بفعل هذا ، دون الرجوع إلى رؤسائه ، وإنما اصطحبه

أيضًا إلى قيادة الدفاع الجوى ، مخالفًا بذلك كل قواعد الأمن والسرية .

أومأ (بافلوف) برأسه مؤيدًا ، فالتقى حاجبا (كواليسكى) ، وغرق فى التفكير العميق لبضع لحظات أخرى ، قبل أن يتساءل :

ـ وماذا فعل بعدها ؟!

مال (بافلوف) إلى الأمام ، وخفض صوته ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد ، وهو يجيب :

ـ استقلّ طائرة من طائراتنا الخاصة ، مع ذلك المصرى ، وأقلع بها إلى (ليننجراد) .

ازداد انعقاد حاجبى (كواليسكى) ، وهو يعتدل فى مقعده بحركة حادة ، قائلاً :

ـ قيادة الدفاع الجوى ، ثم (ليننجراد) ؟!

غرق فى تفكير متوتر لدقيقة ، قبل أن يلتقط هاتفه المحمول ، قائلاً فى عصبية شديدة :

ـ هناك تأكيد بصرى .. هؤلاء الأوغاد أنكروا ، وأخفوا عنى أمر التأكيد البصرى .

نطقها ، وهو يضرب أزرار الهاتف ، قبل أن يهتف عبره :

ـ لقد خدعونا أيها الزعيم .

أتاه صوت (يورى إيفانوفيتش) ، مفعمًا بالغضب والشراسة ، وهو يقول :

ـ خدعوك أنت أيها الغبى .. أنا علمت أن (أدهم صبرى) مازال على قيد الحياة ، بعد حادث الميج .

امتقع وجه (كواليسكى) ، وهو يقول :

ـ ولكن كيف ؟

زمجر (يورى) فى غضب هادر ، وهو يقول :

ـ ابحث أنت عن جواب السؤال ، اما أنا ، فأمامى مهام أكثر تعقيدًا ، أولها أن أضمن ألا يتكررَ هذا ثانية .

سأله (كواليسكى) فى حذر متوتر :

ـ ألا يتكرَّر ماذا ؟!

أجابه (يورى) فى شراسة أكثر :

ـ ألا ينجو (أدهم صبرى) مرة أخرى .. أبدًا .. ومهما كان الثمن .

ازدرد (كواليسكى) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ هل لى أن أعرف كيف ؟!

قاطعه (يورى) فى غضب وحشى :

ـ كلا .. لا يمكنك هذا .

ثم أنهى الاتصال فى عنف ، جعل وجه (كواليسكى) يمتقع أكثر ، وهو يحدِّق فى وجه زميله (بالوف) ، الذى قال فى حرج :

ـ من الطبيعى أن يشعر بالغضب ، و ...

قاطعه (كواليسكى) ، وهو يميل نحوه ، ويسأله فى عصبية :

- كيف كان رجالك يراقبون (كوربوف) ؟!

سأله (بافلوف) فى حذر :

- ماذا تعنى ؟!

هتف به ، فى عصبية أكثر :

- هل اكتفوا بمتابعته ، أم أن لديهم بعض التسجيلات والصور ، وما شابه ؟!

أجابه (بافلوف) فى حذر :

- لا توجد تسجيلات ، ولكن هناك بعض الصور ، و ...

قاطعه فى انفعال :

- أهناك صور تضمّه مع ذلك المصرى ، فى أثناء دخولهما مقر قيادة الدفاع الجوى ؟!

أومأ (بافلوف) برأسه ، قائلاً فى حذر قلق :

- بالتأكيد .

تراجع (كواليسكى) فى مقعده مرة أخرى ، هاتفًا :

- عظيم .

سأله (بافلوف) ، وقد تضاعف حذره :

- ما الذى تفكّر فيه بالضبط يا جنرال ؟!

بدت ابتسامة (كواليسكى) عصبية شرسة ، وهو يلتقط سمّاعة الهاتف الداخلى المؤمّن ، قائلاً :

- سترى .

راقبه (بافلوف) ، وهو يطلب رقمًا داخليًّا قصيرًا ، ثم هتف بصوت أقرب إلى الذعر :

- المدير ؟! هل ستتحدّث إلى المدير ؟!

استدار إليه (كواليسكى) ، وهو يقول فى صرامة شرسة :

- اصمت .

ثم تلاشت صرامته دفعة واحدة ، على نحو عجيب ،



راقبه (بافلوف) ، وهو يطلب رقمًا داخليًا قصيرًا .

عندما سمع صوت المدير ، على الجانب الآخر للخط ، وابتسم فى سرعة ، قائلاً :

ـ مرحبًا يا سيادة المدير .. فى آخر مرة ، كنا نتحدَّث عن حتمية وجود خائن بين الصفوف .. أليس كذلك ؟!

وصمت لحظة ، ليستمع إلى رد المدير ، وقد اتسعت ابتسامته ، واكتست بظفر وحشى ، وهو يغمز بعينه لزميله فى الخيانة (بافلوف) ، قائلاً :

ـ أعتقد أن لدى بعض الأدلة والوثائق والبراهين ، التى تجعلك تدرك من هو الخائن هنا .

قالها ، واتسعت ابتسامته الوحشية أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

« لست أفهم هذا أبدًا .. »

ألقى (أسعد) العبارة فى عصبية ، وهو يجلس

داخل الطائرة الخاصة الصغيرة ، التى تنطلق بـه مع (سيرجى) ، نحو (لينتجراد) ، فالتفت إليه هذا الأخير ، وهو يقول ببروده الصارم التقليدى :

ـ ما الذى لاتفهمه ؟!

لوَّح (أسعد) بيده ، قائلاً :

ـ لماذا نقطع كل هذه المسافة ؛ لمساعدة (أدهم) ، فى قتاله ضد (المافيا) الروسية فى (لينتجـراد) ؟! لمـاذا لـم تصدر أوامرك لمكتبكـم هنـاك ، حتـى يؤمنـوا لـه وللباقين الحماية اللازمة ، حتى نبلغ موقعهم .

هزَّ (سيرجى) رأسه ، قائلاً :

ـ لا يمكننى أن أثق بأحد .

مطَّ (أسعد) شفتيه ، وقال فى عصبية :

ـ من المستحيل أن يكون الفساد قد استشرى إلى هذا الحد !!

أجابه (سيرجى) فى صرامة :

ـ ولِمَ لا ؟! الفساد نـار تنتشر ، فى كل اتجـاه قابل

للاشتعال ، والمال كان وسيظلّ دومًا إغراء لايقـاوم ، ما دام المرء يفتقر إلى الشرف والنزاهة .

قال (أسعد) فى سرعة :

ـ والإيمان .

تنهد (سيرجى) ، وغمغم :

ـ نعم .. والإيمان .

هزَّ (أسعد) رأسه ، قائلاً فى توتر :

ـ ولكن ما أخشاه أن نصل بعد فوات الأوان .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين فى شدة ، وهو يقول :

ـ أتعشَّم ألا يحدث هذا ؛ فقد وضعت آمالا عريضة ، على وجود (أدهم) ؛ لمكافحة هذا الموقف العصيب الرهيب ، الذى يواجهنا جميعًا .

ثم تراجع فى مقعده ، مستطردًا فى عمق :

ـ ولو أنه لقى مصرعه قبلها ، فلا أحد يعلم ماسيصبح عليه مصير العالم عندئذ .

التقى حاجبا (أسعد)، وهو يدرس عبارة (سيرجى) الأخيرة، ولمحة من الخوف تتسلل إلى أعماقه، مع تساؤل رهيب ..

تُرى هل سيصلان فى الوقت المناسب ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

« لا يا (أدهم) .. لا يمكن أن تسمح بحدوث هذا .. »

تردَّدت العبارة فى رأسه بقوة، والنيران تمتدّ من كل اتجاه حوله، وتنتشر فى سرعة مخيفة؛ لتحاصر الصومعة، التى تضمّ كل رفاقه ..

« لا يمكن أن تسمح بحدوث هذا أبدًا .. »

« إنك لم تقطع كل هذه المسافة، ولم تقاتل بكل هذا العنف، وتبذل كل هذا الجهد، لتراهم يحترقون أمامك هكذا، بلا رحمة أو هوادة .. »

« مستحيل أن يحدث هذا ! »

« مستحيل !! »

« مستحيل !! »

اشتعلت النيران فى مؤخرة السيارة، التي يحتمى بها من الرصاصات المنهمرة، والتى لا تتوقف لحظة واحدة، ولكن الغضب العارم، الذى ملأ كل ذرة من كيانه، جعله لا يبالى بالنيران وألسنة اللهب ..

لقد استشرى فى وجوده كله هدف واحد ..

أن ينقذ رفاقه من هذه الميتة البشعة ..

وبأى ثمن ..

وفى حزم عجيب، وعلى الرغم من الرصاصات المنهمرة، وألسنة اللهب، المندلعة من مؤخرة السيارة، وثب (أدهم) إلى مقعد قيادتها، وهو يقول فى صرامة :

ـ فليكن أيها الأوغاد .. أنتم تسعون للمواجهة، فلتنالوها إذن .

ضغط دوّاسة الوقود فى قوة، فاندفعت السيارة، تشقّ ألسنة اللهب، نحو البقعة التى تنهمر منها الرصاصات ..

مشهد رهيب، ذلك الذى رآه رجال (المافيا) الروسية، من مكمنهم، وسط الأشجار المحيطة بالصومعة ..

سيارة نصف مشتعلة ، تعبر ألسنة اللهب على نحو مهيب ، وكأنما لم يعد يبالى قائدها ، بذلك الجحيم المحيط به من كل صوب ، وهو ينطلق نحوهم بأقصى سرعة ..

كانوا عشرة رجال ، هم كل من تمكّن (يورى) من جمعهم بهذه السرعة ، من أحياء (لينينجراد) ، القريبة من الصومعة ، وكل منهم يحمل مدفعًا آليًّا ، من أفضل وأحدث الأنواع ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أصابهم مرأى السيارة المشتعلة ، وهى تنقضّ عليهم برعب هائل ، جعلهم يتركون أماكنهم ، ويعدون باضطراب فى كل مكان ..

ولكن السيارة المشتعلة واصلت الانطلاق نحوهم ، و(أدهم) داخلها يقول لنفسه فى صرامة :

ـ فليكن يا (أدهم) .. صحيح أنك تبغض القتل والتدمير ، ولكن الأمر هذه المرة لا يحتمل المساومة .. إما حياتهم ، أو حياة كل من تحب ، فى هذا العالم .

كانت النيران قد امتدَّت إلى النصف الخلفى للسيارة بأكمله ، وإلى إطاراتها الأربعة ، وخزان وقودها ..

ولكن (أدهم) واصل انطلاقه بها ، خلف قتلة (المافيا) ، قبل أن يهتف :

ـ الآن تبدأ مهمتك وحدك أيتها السيارة .

ومع هتافه ، وثب خارج السيارة ، وترك جسده يتدحرج فوق العشب ، فى حين واصلت السيارة طريقها ، حتى ارتطمت بإحدى الأشجار ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجار عنيف ، مزّق السيارة الكبيرة ، ونسف خزان وقودها نسفًا ، فتناثر الوقود المشتعل فى مسافة واسعة ، وتساقط على أجساد قتلة (المافيا) الروسية ، فانطلقت صرخاتهم المذعورة ، وهم يعدون فى كل اتجاه ..

أما (أدهم) ، فقد هبَّ واقفًا على قدميه ، واستدار إلى حيث الصومعة ، التى ترك فيها رفاقه ..

ولكن ألسنة اللهب كانت تقترب منها بسرعة أكبر ..

وأكبر ..

وأكبر ..

وبكل توتر الدنيا ، اندفع (أدهم) نحو واحدة من السيارات ، التى تركها القتلة خلفهم ، ووثب داخلها ، وانطلق بها عائدًا إلى الصومعة ، وهو يهتف :

ـ رباه ! تُرى ماذا يفعلون الآن ؟! ماذا أصابهم ؟!

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها هتافه كانت (منى) تقول فى ارتياع :

ـ النيران تقترب بسرعة مخيفة .

اتسعت عينا (شريف) ، وهو يقول بكل توتر الدنيا :

ـ ماذا نفعل ؟! ماذا نفعل ؟!

تلفَّتت (ريهام) حولها ، هاتفة :

ـ آه لو وجدنا أى شىء ، يصلح لصنع قنبلة .

هتفت بها (منى) ، فى دهشة مستنكرة :

ـ قنبلة ؟! فى مثل هذه الظروف ؟!

أجابتها (ريهام) ، وهى تندفع نحو بعض الأشياء المهملة فى الركن :

ـ بالتأكيد .. النيران تنتشر بسبب الأكسجين فى الهواء .. إنه لايشتعل ، ولكن وجوده ضرورى لمواصلة الاشتعال ، وحدوث انفجار يؤدى إلى خلخلة الهواء ، فى مساحة تتناسب مع قوته ، وهذا يؤدى إلى نقص حاد مفاجئ فى الأكسجين ، مما يؤدى إلى إطفاء الحريق ، وهذا ما يفعلونه لإطفاء آبار البترول المشتعلة ، التى يعجزون عن السيطرة عليها بالطرق التقليدية(*) .

كان الدخان يتسلَّل إلى المكان ، على نحو جعل (منى) تسعل ، هاتفة :

ـ وهل يمكن أن يوجد شىء صالح هنا ؟!

أجابتها (ريام) ، وهى تفحص كل ما بالركن ، فى لهفة واهتمام :

(*) حقيقة .

ـ أى شىء يمكن أن يصلح ، مادام لدينا مصدر للاشتعال .

سعل (شريف) بدوره ، وهو يهتف :

ـ أخشى أنه ليس أمامنا سوى سبيل وحيد حاليًا ، للنجاة من النيران .

سألته (منى) فى توتر ، وهى تحاول اختراق ألسنة اللهب ببصرها ، بحثًا عن (أدهم) :

ـ وما هو ؟!

سعل مرة أخرى فى قوة ، مجيبًا :

ـ أن نعود إلى الصومعة ؟!

استدارت إليه (ريهام) ، هاتفة فى استنكار :

ـ الصومعة ؟! هل جننت ؟!

لوّح بيده ، وهو يسعل ، قائلاً :

ـ إنها المكان الوحيد ، الذى لن تبلغه النيران .

هزّت (منى) رأسها فى قوة ، وهى تقول فى عصبية :

ـ خطأ .. الصومعة ستصبح أشبه بقبر حقيقى ، عندما تمتلئ بدخان الحريق ، ونختنق داخلها كلنا .

ثم عضت شفتيها ، مضيفة فى عصبية أكثر :

ـ ثم كيف سنعيد (قدرى) إليها ؟!

عضّ (شريف) شفتيه ، وهو يلقى نظرة على (قدرى) ، مغمغمًا ، وقد انتقلت إليه عصبية (منى) :

ـ آه .. كيف نسيت هذا ؟!

مع آخر حروف عبارته ، اخترق (أدهم) ألسنة اللهب مرة أخرى ، بسيارة أخرى من سيارات الدفع الرباعى ، توقّف بها على بعد متر واحد من الحجرة الخشبية ، التى تخفى فتحة الصومعة ، فهتفت (منى) فى لهفة وسعادة :

ـ لقد عاد (أدهم) .. عاد .

أجابتها (ريهام) فى توتر شديد ، وهى تلتقط بعض الأدوات ، وتعمل بها فى سرعة :

ـ عاد إلى الجحيم .. يا لها من عودة !

وثب (أدهم) عبر السيارة ، وهو يحمل غطاءها القماش الكبير ، وراح يدور حولها فى سرعة ، ليطفئ ما التقطته من نيران ، فاندفعت (منى) إليه ، ولهثت مع سعالها ، وهى تهتف :

ـ حمدًا للّه على سلامتك .

ربَّت على كتفها فى توتر ، وهتف بها :

ـ اتخذى مقعد القيادة ، وتراجعى حتى باب الحجرة .

سألته ، وهى تنفذ أمره فى آلية :

ـ ماذا ستفعل ؟!

أجابها فى حزم شديد ، وهو يعدو إلى الحجرة :

ـ سأحضر (قدرى) .

هتفت :

ـ مستحيل ! لن يمكنك إحضاره وحدك .

نفس الكلمة هتفت بها (ريهام) ، عندما أمسك (أدهم) الحبل ، الذى يربط ذلك الباب الثقيل ، حيث استقر جسد (قدرى) ، فى حين أضاف (شريف) ، فى توتر بالغ :

ـ كلنا مصابون أيها القائد .. لن تجد من يمكنه مساعدتك .

صاح (أدهم) فى صرامة آمرة :

ـ إلى السيارة كلكم .. هيا .

حملت (ريهام) ما صنعته ، وعاونت (شريف) على النهوض ، وهى تقول :

ـ سيادة العميد .. ربما لو ....

قاطعها بصيحة صارمة :

أسرعت و(شريف) ينفذان الأمر ، فى حين أمسك هو الحبل فى قوة ، ومرَّره على كتفيه ، وهو يتطلَّع إلى جسد (قدرى) الفاقد الوعى ، مغمغمًا :

ـ لن أتخلّى عنك يا صديقى .. لن أفعلها ، مهما كان الثمن .

أما (ريهام) ، فلم تكد تبلغ السيارة ، حتى لوّحت بما تحمله ، قائلة فى انفعال شديد ، وهى تراقب ألسنة اللهب :

ـ لقد صنعتها .. قليل من الطلاء ، مع عبوة من الأسيتون (*) ، وثلاث عبوات من المبيدات الحشرية ، فى أسطوانات مضغوطة .. سنستخدمها لصنع انفجار محدود ، يفتح أمامنا ممرًّا للخروج من هنا .

تمتمت (منى) فى عصبية ، وهى تتطلع خلف ظهرها ، إلى مدخل الحجرة الخشبية ، حيث تراجعت بالسيارة لتصبح على مسافة متر واحد منها ، كما أمرها (أدهم) ، وهى

(★) الأسيتون : مركب عضوى ، عديم اللون ، غير قابل للاشتعال ، يتكوّن من الكربون والهيدروجين والأكسجين ، له مذاق ونكهة نعناعية ، يغلى عند درجة (٥٦ر١°) ، ويستخدم بكثرة كمذيب لمعظم المواد العضوية ، كما يستخدم لصناعة (السليولويد) ، والمساحيق اللادخانية ، وفى صناعة (الكلوروفورم) ، ويتم تحضيره بتقطير الخشب مع خلات الكالسيوم ، وكذلك بتخمّر النشا .

تتساءل عما سيفعله هذا الأخير ، لإخراج (قدرى) من المكان ، بجسده الضخم الثقيل ، و ...

وفجأة ، اتسعت عيناها من آخرهما فى ذهول ..

وكذلك عيون (شريف) و(ريهام) ..

فأمام عيون ثلاثتهم كان (أدهم) يعبر باب الحجرة ، وهو يسحب خلفه ، بقوة رهيبة ، ذلك الباب الخشبى الثقيل ، الذى استقرّ فوقه جسد (قدرى) الفاقد الوعى ..

كان من الواضح أنه يبذل جهدًا يفوق قدراته ، مع ذلك العرق الغزير ، الذى غمر وجهه وجسده كله ..

ووثبت (منى) من السيارة ، وهى تندفع نحوه ، هاتفة :

ـ يا إلهى ! كيف فعلت هذا ؟!

أشار إليها فى صرامة ، قائلاً :

ـ افتحى الباب الخلفى .

أسرعت تنفذ أمره ، وتفتح الباب الخلفى للسيارة ، وهى تسأله فى توتر بلغ مداه :

ـ ولكن كيف سترفعه إلى داخل السيارة ؟!

استدار (أدهم) ، بذلك العرق الذى يغمره ، وتطلّع إلى (قدرى) ، مجيبًا بكل حزم وصرامة الدنيا :

ـ لن أتخلّى عنه .. أبدًا .

كانت النيران قد بلغت مؤخرة تلك الحجرة الخشبية الكبيرة بالفعل ، عندما ألقى (أدهم) سترته جانبًا ، ثم انحنى يحلّ الأحبال التى تثبت جسد (قدرى) بالباب الثقيل ، قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا ، ويغمغم :

ـ ساعدنى يا إلهى !

ومرة أخرى ، اتسعت كل العيون فى ذهول ..

لقد انقبضت عضلات جسده كلها ، حتى تمزّق كماً قميصه ، وتطايرت أزراره ، وهو يرفع جسد (قدرى) ، وقد احتقن وجهه ، حتى بدا وكأنه سينفجر ، من شدة ما يبذل من جهد ..

وفى ذهول ، غمغمت (ريهام) :

ـ مستحيل !

أما (شريف) ، فقد بدا له وكأنه يشاهد لقطة أسطورية ، من فيلم خيالى ، عندما رأى (أدهم) يرفع جسد (قدرى) عن الأرض ، وقد انتفخت عضلاته ، وانتفخت كل عروقها ، على نحو لم يشاهده على بشر من قبل .

وبدفعة واحدة ، وضع جسد (قدرى) داخل السيارة ، و(منى) تحدّق فيه بكل ذعر وقلق الدنيا ، قبل أن تغمغم :

ـ يا إلهى ! لقد فعلتها .. لقد فعلتها يا (أدهم) .

خُيِّل إليها أنه سيسقط فاقد الوعى ، من شدة شحوبه وامتقاعه ، وهو يقول ، وسط لهاث عنيف للغاية :

ـ لم يكن من الممكن أن أتخلّى عنه .. لم يكن من الممكن أبدًا .

هتف (شريف) فى انبهار :

ـ ليت لى صديق واحد مثلك أيها القائد .

وفى قوة ، هزّت (ريهام) رأسها ، لتنفض عنها ذهولها ، قبل أن تغادر السيارة ، قائلة فى حزم :

ـ سأشق طريقًا للنجاة .

ألقت قنبلتها العجيبة وسط النيران ، ثم تراجعت تحمى وجهها وجسدها ، والآلام تتصاعد من إصابة كتفها وفخذها فى عنف ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجار محدود نسبيًا ، أدى ماتوقّعته منه تمامًا ، فخبت النيران فى مساحة محدودة ، جعلتها تهتف فى ظفر :

ـ أسرعوا .. لن يظلّ هذا الوضع طويلاً .

جذب (أدهم) (منى) ، هاتفًا بها :

ـ أسرعى .

دفعها إلى المقعد المجاور للسائق ، ثم استعدّ لاحتلال مقعد القيادة ، قبل أن ينعقد حاجباه ، ويهتف بكل توتره :

ـ أين (أحمد) ؟!

أصاب سؤاله ثلاثتهم بالذعر ، وصاحت (منى) :

ـ رباه ! إنه مازال داخل الصومعة .

التقى حاجبا (أدهم) بشدة ، وهو يهتف :

ـ داخل الصومعة ؟!

أدار عينيه فى حركة حادة إلى النيران التى بدأت تلتهم الحجرة الخشبية الكبيرة بالفعل ، ثم استدار بجسده كله ، إلى الفجوة التى صنعتها قنبلة (ريهام) ، فى حائط النيران ، قبل أن يقول لـ (منى) فى حزم صارم آمر :

ـ اتخذى مقعد القيادة .

هتفت به :

ـ ماذا سنفعل ؟!

صاح بها فى صرامة شديدة :

ـ انطلقى فورًا ، قبل أن تفقدوا هذه الفرصة ، واستخدمى أسطوانة الإطفاء فى السيارة ، لإخماد النيران ، التى ستشتعل فى أى مكان بها .

اتخذت مقعد القيادة بالفعل ، وهى تهتف :

ـ لا .. لن ننصرف بدونك .. سننتظرك حتى ....

قاطعها بصيحة هادرة :

ـ انطلقى .

ثم انطلق يعدو ، عائدًا إلى الصومعة ، وهو يصرخ :

ـ هذا أمر .

هزّت (منى) رأسها فى قوة ، وهى تهتف :

ـ لا .. لن أرحل بدونك .. لن أطيع أوامرك هذه المرة .

ولكن (ريهام) دفعت جسدها إلى الأمام ، ودفعت قدمها لتضغط دوّاسة الوقود ، وهى تقول فى حزم عصبى :

ـ هل نسيت كل ماتعلمناه ؟! لايمكنك مخالفة أوامر الأستاذ قط .

أطلقت (منى) صرخة يأس واعتراض عالية ، والسيارة تندفع بهم ، مخترقة جدار اللهب ، تاركين (أدهم) خلفهم فى قلب المعمعمة ..

وقلب الجحيم .

* * *





أطلقت (منى) صرخة يأس واعتراض عالية ، والسيارة تندفع بهم ، مخترقة جدار اللهب ..

٨ ـ قلب اللهب ..

لم تكد الطائرة الخاصة تهبط فى ذلك المطار الصغير ، التابع للمخابرات الروسية فى (لينتجراد) ، حتى حلَّ (أسعد) حزام مقعده فى لهفة ، وهو يقول :

ـ رباه ! أتعشَّم أن نكون قد وصلنا فى الوقت المناسب .

أجابه (سيرجى) فى حزم ، وهو ينهض بدوره :

ـ سنعرف بعد قليل .

كانت فى انتظارهما سيارة من سيارات المخابرات الروسية ، اتجه إليها (سيرجى) مباشرة ، وهو يقول :

ـ لقد اتخذت كل ما يلزم من إجراءات ؛ لننطلق على الفور ، إلى حيث صوامع (جياروف) ، على مشارف المدينة ، وهو المكان الذى أعتقد أن (أدهم) والباقين فيه .

غمغم (أسعد) فى توتر :

ـ هم أو جثثهم .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هم ، أو مصير (روسيا) .. بل وربما العالم كله .

كان سائق السيارة يتحدَّث عبر جهاز الاتصال اللاسلكى فى اهتمام بالغ ، حتى إنه لم ينتبه إليهما ، إلى أن قال (سيرجى) فى برود آمر :

ـ فيم تتحدَّث يا رجل ؟!

التفت إليه السائق بحركة حادة ، وحدَّق فى وجهه لحظة بدهشة ، وكأنه لم يكن يتوقَّع قدومه ، ثم لم يلبث أن اندفع خارج السيارة ، وأدى التحية فى قوة ، وهو يقول :

ـ معذرة يا كولونيل ، ولكن الإدارة طلبت منى عدم مغادرة المطار ، حتى إشعار آخر .

تفجَّر قلق عارم فى أعماق (أسعد) ، مع عبارة السائق ، فى حين عاد حاجبا (سيرجى) ينعقدان ، وهو يقول :

ـ عدم مغادرة المطار ؟! ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

حمل صوت السائق حيرة حقيقية ، وهو يجيب :

ـ لست أدرى يا كولونيل .. حقًّا لست أدرى .

ازدرد انعقاد حاجبى (سيرجى) ، قبل أن يغمغم :

ـ تُرى هل .... ؟!

بتر عبارته ، دون أن يكملها ، فسأله (أسعد) بكل قلقه :

ـ ما الذى يمكن أن يعنيه هذا يا كولونيل ؟!

أدار (سيرجى) عينيه إليه فى توتر ، قبل أن يستلّ مسدسه بغتة ، ويدير فوهته نحو السائق ، الذى انتفض فى ذعر ذاهل ، هاتفًا :

ـ ماذا حدث يا كولونيل ؟!

صاح به (سيرجى) ، بكل صرامته وبروده :

ـ ابتعد عن السيارة .

كرَّر السائق ، وهو يرفع ذراعيه ، ويعدو مبتعدًا عن السيارة :

- ماذا حدث يا كولونيل ؟! ماذا فعلت ؟!

دفع (سيرجى) (أسعد) داخل السيارة ، قائلاً فى صرامة :

- أسرع .

ولم يكد (أسعد) يستقر داخلها ، حتى دفع (سيرجى) نفسه إلى مقعد السائق ، وأدار المحرِّك فى سرعة ، فهتف به (أسعد) :

- ماذا حدث ؟!

أجابه (سيرجى) ، وهو ينطلق بالسيارة :

- بعضهم عبث بالأمور ، فى محاولة لمنعنا من بلوغ هدفنا .

ثم أضاف ، وهو يتجه نحو مخرج المطار :

- ألم أقل لك إن الفساد قد بلغ الذروة .

تراجع (أسعد) فى مقعده ، مردِّدًا :

- يا إلهى ! يا إلهى !

انطلق (سيرجى) نحو مخرج المطار ، تاركًا السائق خلفه ، فى حالة من الذعر والذهول ، و ...

وفجأة ، ظهرت تلك السيارات الأخرى ..

أربع سيارات ، تحمل جيشًا من رجال المخابرات الروسية ، عبر المخرج من الاتجاه المضاد ، واندفعت تحيط بسيَّارة (سيرجى) فى سرعة ، تشفّ عن براعة ومهارة سائقيها ..

وفى حزم ، رفع (سيرجى) فوهة مسدسه ، قائلاً :

- يبدو أن الأمور لن تمضى بسلام .

تطلَّع (أسعد) فى قلق بالغ ، إلى الرجال الثمانية ، الذين قفزوا من السيارات ، وأحاطوا سيارة (سيرجى) بمدافعهم الآلية ، وقال :

- مسدس واحد فى مواجهة جيش كامل .. أظن أن فرصتنا تقلّ عن الصفر يا رجل .

التقى حاجبا (سيرجى) ، على نحو لم يحدث من

قبل ، وهو يدرس عبارة (أسعد) ، ويتابع ببصره ذلك الرجل التاسع ، الذى أسرع يعدو ، ليتخذ موقعًا خلف السيارة ، حاملاً على كتفه مدفعًا صاروخيًا صغيرًا ، وتمتم :

ـ يبدو أنك على حق .

ثم أعاد مسدسه إلى غمده ، ودفع باب السيارة ، قائلاً فى صرامة ، حملت رنة غضب واضحة :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟!

أتاه صوت ، يقول بلهجة أكثر صرامة ، من داخل إحدى السيارات :

ـ أخبرنى أنت ماذا يحدث بالضبط ، يا كولونيل (كوربوف) ؟!

ثم خرج من السيارة رجل متين البنيان ، أشقر الشعر ، عريض الفكين ، يستطرد فى صرامة أكثر :

ـ المدير شخصيًا أصدر أمرًا باعتقالك .

اتسعت عينا (أسعد) فى ارتياع ، وهو يتمتم :

ـ آه .. كان ينبغى أن أتوقَّع هذا .

أما (سيرجى) ، فقد حملت ملامحه الثلجية غضبًا لاحدود له ، وهو يتطلَّع فى صمت إلى زميله ، وفى أعماقه تتردد صرخة قوية ..

لقد فعلها (كواليسكى) هذه المرة ..

لعبها بمنتهى البراعة ..

ومنتهى الشراسة ..

* * *

لأوَّل مرة ، منذ فترة طويلة ، تفجَّرت من حلق (يورى إيفانوفيتش) ضحكة عالية ، واسترخى فى مقعده ، وهو ينفث دخان سيجارته بمنتهى العمق ، ويضع هاتفه المحمول على المنضدة أمامه ، قائلاً :

ـ كم يدهشنى ما فعله (كواليسكى) الغبى هذه المرة .. لقد نجح فى إثارة انبهارى بحق !!

توقّفت (زوشا) عن رياضتها العنيفة ، وسألته فى اهتمام :

ـ وما الذى فعله ؟!

لوَّح (يورى) بيده ، قائلاً :

ـ أزاح منافسه وخصمه اللدود ، الكولونيل (سيرجى كوربوف) عن طريقه .. وبضربة قاصمة .

نهضت متسائلة فى فضول :

ـ وماذا فعل ؟!

اكتسى صوته بصرامة مباغتة ، وهو يجيب :

ـ ما ينبغى .

شعرت بالحنق لأسلوبه هذا ، ولذلك التقلُّب العجيب فى مشاعره ، وحاولت أن تبحث عن حديث آخر ، فقالت فى عصبية :

ـ الضربة الأخيرة كان لها تأثير رهيب .

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ إنها لم تكتمل بعد .

لم تنتبه إلى ما يقصده ، فتساءلت فى اهتمام :

ـ ألن تعلن مطالبك الآن ؟!

نفث دخان سيجارته فى قوة ، وتطلَّع إلى سحب الدخان ، وهى تصعد إلى سقف القاعة القديمة ، التى يجلسان داخلها ، قبل أن يلتفت إليها ، ويقول فى برود عجيب :

ـ ماذا دهاك يا عزيزتى (زوشا) ؟! هل أصابك الصمم مؤخرًا ، أم أن درجة ذكائك قد انخفضت بغتة ؟!

أقلقها سؤاله وبروده المباغت فتمتمت فى حذر شديد :

ـ لماذا ؟!

صرخ فى وجهها بغتة ، بغضب هادر :

ـ قلت إن الضربة الثالثة لم تكتمل بعد .

شعرت بالغضب ، وهى تقول فى عصبية :

ـ الضحايا هذه المرة بالآلاف .

رفع سبَّابته ، قائلاً فى صرامة :

ـ (شلينكو) لم يضرب الهدف بعد .

ثم نهض من مقعده بغتة ، مستطردًا فى مقت :

ـ (القاهرة) .

التقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على غضبها ، وهى تشيح بوجهها ، قائلة فى توتر :

ـ إنها مسألة وقت .

عاد يجلس على مقعده ، قائلاً فى صرامة :

ـ نعم .. مسألة وقت .

وصمت لحظة ، نفث خلالها دخان سيجارته ، قبل أن يضيف فى شراسة :

ـ ونتائج ..

اندفعت ، قائلة :

ـ كل هذا من أجل أد ...

بترت عبارتها دفعة واحدة ، عندما أدركت حمقها ، فابتسم هو فى سخرية ، ونفث دخان سيجارته مرة أخرى ، قائلاً :

ـ نعم .. كل هذا من أجل (أدهم صبرى) .

غمغمت فى ارتباك :

ـ ليس هذا ما قصدته .

قال فى سخرية أكثر :

ـ حقًّا ؟!

ثم عاد حاجباه ينعقدان مرة أخرى ، وهو يستطرد ، بلهجة حملت كل مقت وغضب الدنيا :

ـ ولكن هذا ما أقصده أنا .

مع آخر حروف كلماته ، ارتفع رنين هاتف (زوشا) ، فالتقطته فى سرعة ، قائلة :

ـ من هناك .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تستمع إلى محدثها ، قبل أن ترفع رأسها إلى (يورى) ، قائلة فى توتر :

ـ إنه (شلينكو) .. لقد اقترب من الهدف ، ولكن كل الطرق مغلقة ، ورجال الشرطة يفحصون كل السيارات .

بدا التوتر على ملامح (يورى) ، وهو ينفث دخان سيجارته ، مكررًا :

ـ كل الطرق مغلقة .

أشارت (زوشا) بيدها ، قائلة فى توتر أكثر :

ـ إنه لايستطيع بلوغ الهدف ، ويسأل ماذا ينبغى أن يفعل .

خُيِّل إليها أن ملامحه قد حملت وحشية لامثيل لها ، وهو يلقى سيجارته إلى ركن القاعة ، ثم ينهض ، قائلاً فى صرامة :

ـ أبلغيه أن عليه أن ينفذ خطة الطوارئ فورًا .. فليطلق الشحنة كلها .. الآن .

وكان هذا يعنى أن تنضمّ (مصر) إلى قائمة ضحايا الوحش ..

الوحش الآدمى ..

وبأمر مباشر ..

للغاية ..

★ ★ ★

كان المكان يتحوَّل إلى جحيم حقيقى ، عندما بلغ (أدهم) تلك الفتحة ، فى قمة الصومعة ، وتطلَّع عبرها ، هاتفًا :

ـ (أحمد) .. أأنت بخير ؟!

سعل الدكتور (أحمد) بشدة ، مع الدخان الذى ملأ المكان ، وراح يترنَّح ، وهو يهتف :

ـ إننى أكاد أختنق .. أخرجنى من هنا بسرعة بالله عليك يا (أدهم) .. أسرع .

التقط (أدهم) الحبل ، الذى كان يثبت (قدرى) بالباب الثقيل ، وتلفَّت حوله ، بحثًا عما يثبته به ، قبل أن يعدو نحو الباب الملقى أرضًا ، ويرفعه بعضلاته ، التى لم تشعر يومًا بالإجهاد ، مثلما تشعر به الآن ، ثم وضعه بالقرب من الفتحة ، وأحاطه بطرف الحبل ، قبل أن يلقى الطرف الآخر داخل الصومعة ، هاتفًا :

- هيا .. تسلَّق ذلك الحبل يا (أحمد) .. أسرع .

سعل الدكتور (أحمد) أكثر وأكثر ، وهو يشق طريقه ، وسط الدخان الكثيف ، الذى غمر الصومعة كلها ، نحو الحبل ، فهتف (أدهم) ، وهو يراقب النيران ، التىتنتشر فى المكان بسرعة مخيفة :

- أسرع باللّه عليك .. أسرع .

ولكن الدكتور (أحمد) توقَّف فجأة ، وامتقع وجهه بشدة ، وهو يغمغم فى ارتياع :

- رباه ! لاليس الآن .. ليس .

قبل أن تكتمل عبارته ، مادت به الأرض فجأة ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، وهوى أرضًا فاقد الوعى ..

وهتف (أدهم) :

- يا إلهى ! (أحمد) .

ودون أن يتردَّد ، ولو لجزء من الثانية ، وثب داخل الصومعة ، واندفع نحو شقيقه ، وفحصه فى سرعة وتوتر بلا حدود ..

كان المسكين قد فقد الوعى ، مع الدخان الذى ملأ رئتيه ، ولم يحتمل جسده الضعيف كل هذا الإجهاد والانفعال ..

وفى حزم ، حمل (أدهم) شقيقه على كتفه ، ثم وثب يتعلق بالحبل ، وقرقعة النيران فى أعلى تكاد تصمّ أذنيه ..

كانت كل ذرة فى جسده تشعر بإجهاد بلا حدود ، ولكن إرادته الفولاذية كانت تتجاوز كل هذا ، وتبث فى عروقه طاقة هائلة ، و ...

ولكن فجأة ، بلغت النيران ذلك الباب الخشبى الثقيل ..

والحبل المحيط به ..

وشاهد (أدهم) النيران تلتهم طرف الحبل ، فغمغم ، وهو يتسلقه فى سرعة أكبر :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

كان يقاتل لبلوغ الفتحة ، قبل أن تلتهم النيران طرف الحبل تمامًا ..

ولكن فجأة ومع ثقل جسديهما معًا ، لم يحتمل الحبل ..

وانقطع ..

ووجد (أدهم) نفسه يهوى مع شقيقه ، ليرتطما بأرضية الصومعة فى قوة ، فهبَّ واقفًا فى سرعة ، يهتف :

ـ رباه ! (أحمد) .

ومع آخر حروف كلماته ، دوت قرقعة أكثر عنفًا من أعلى ، ثم انهارت تلك الحجرة الخشبية العلوية دفعة واحدة ، والنيران تلتهمها بلا رحمة ، وأغلقت الأخشاب المحترقة فتحة سقف الصومعة تمامًا ، وراحت تغمرها بدخان كثيف ..

كثيف لدرجة لايمكن أن يحتملها بشر ..

أى بشر .

انتهى الجزء الخامس بحمد الله

ويليه الجزء السادس والأخير بإذن الله

(المواجهة الأخيرة)